

زدني علماً

فلسفة

لوك بنوا

إشارات، رموز وأساطير

عويذات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

إشارات، رموز وأساطير

لوكُ بِنُـوَا

إِشَارَات، رُمُوز وَأَسَاطِير

تعريب

فايز كم نقش

عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لـ
عويادات للنشر والطباعة – بيروت / لبنان
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الأولى 2001

مقدمة

وفقاً للفكرة التي اتخذت بشكل عام، يكون مفهوم الرمز مُستبعداً في موطن رسمي رفيع نادراً ما تزوره فيه قلة من المتطلعين إلى الفن القروسطي أو إلى الشعر المنسق وفي هذا خطأ غريب لأن كل إنسان يستعمل الرمزية كل يوم دون أن يدري، على الطريقة التي كان يتكلم بها السيد جوردان⁽¹⁾ نثراً لأن كل كلمة رمز. وكما كان يقول أرسطو⁽²⁾: «كلمة كاتب لا تعض». لذا، ليس هناك إذن دائرة محمية أو اتفاقية بل ممارسة يومية دور الرمزية فيها التعبير عن أي فكرة ما بطريقة يقبلها الجميع.

اشتقاقياً، كلمة رمز مشتقة من اليونانية «Sumballein» - «سومبالين» التي تعني التوثيق أو الربط. وكان المرموز في «Sumballon» علامة للتعارف. وأي شيء مقسم إلى قسمين متساويين يسمح بالتقارب لحامليهما والتعارف كأخوين وأن يستقبل كل منهما الآخر بحفاوة بالغة دون أن يكونا قد تقابلا من قبل.

فالرمز إذن في نطاق الأفكار عامل صلة غني بالوساطة والتماثل، يجمع المتناقضات وينقص التعارض. لا يمكن فهم شيء أو نقل شيء دون مساهمته. وعلم

(1) السيد جوردان هو الشخصية الرئيسية في مسرحية البورجوازي النبيل Le Bourgeois Gentilhomme التي ألفها جان باتيست موليير عام 1670 - المترجم -.

(2) أرسطو فيلسوف يوناني 384-322 قبل الميلاد، مدرس الاسكندر الأكبر ومؤسس مدرسة ابتدائية ثانوية في أثينا. وهو مؤلف عدد كبير من البحوث في المنطق والسياسة والبيولوجيا والتشريح المقارن وتنظيم الحيوان إضافة إلى الفيزياء وما وراء الطبيعة - المترجم.

المنطق يتوقف عليه لأنه يدعو إلى التكافؤ. والرياضيات نفسها بأرقامها لا توضح إلا بالرموز.

والحياة بصورة خاصة هي المصدر الأكثر غزارة لهذه الأساليب وهي أقدم مستعملها. كانت تبينها في الوقت الذي كان فيه الإنسان البدائي ينطق بأول كلمة واضحة النبرات. لهذا، تعبر الرمزية الحيوية والعضوية دائماً عن الحقائق المنسقة روحياً بشكل أفضل كما تشهد على ذلك الحكم الإنجيلية. ولهذا أيضاً ترى البيولوجيا اليوم علومها الجديدة التي تتكاثر بنظام الاشتقاق، في طريقها إلى استبدال المفهوم الرياضي الأشد قسوة من الفلسفة الموعلة في الأدب بأسلوب أكثر ارتباطاً بالخداعية الشفهية منه بالأشياء المحسوسة بعيداً عن أولويته القديمة.

وإذا كانت هناك كتب كثيرة تبحث في هذا الموضوع العظيم فإنها فيما نرى تعمل بطريقة خاصة وفي دائرة محدودة حتى عندما تكون موجهة إلى التعميم. ليس بينها كتاب واحد يفسر الأسباب المنطقية للرمزية. حتى المعاجم نفسها لا تقوم إلا بتعداد الكلمات والدراسات المخصصة ولا تغامر في نطاق تكوينها. إنها مجرد معائنات وليست شروحات خاصة يحق للمرء توقعها.

لذا بدا لنا مفيداً تتبع تحول الإشارات منذ ظهورها حتى تحولها البعيد وبصورة خاصة في محيط العادات والأساطير لكي نوضح ترابطها الوظيفي. فالأساطير هي لغة المبادئ المزيّنة وفرويد⁽¹⁾ يسميها المركبات ويونغ⁽²⁾ النماذج المثالية وأفلاطون⁽³⁾

(1) سيجموند فرويد طبيب نمساوي 1856-1939 مؤسس علم التحليل النفسي. له مؤلفات كثيرة حول النظريات الجنسية ينتقل فيها إلى موضوع الأنا والأنا المثالي الناتج عن عقدة أوديب - المترجم -.

(2) كارل جوستاف يونج أو جونج JUNG طبيب أمراض عقلية سويسري 1875-1961، وهو أقرب مريدي فرويد ومؤيدي نظرياته.

(3) أفلاطون، فيلسوف يوناني 427-347 قبل الميلاد تلميذ سقراط له مؤلفات كثيرة من أهمها: السفسطي والقوانين ولا تزال أوروبا والعالم الغربي متأثرين بأفكاره وكذلك الفلسفة الإسلامية.

يسمىها الأفكار. وهؤلاء يفسرون أصل نظام ما وعرفٍ ونهجٍ أي حادثة غريبة ونتائج أي لقاء. إنها كما كان يقول جوتيه⁽¹⁾ Goethe العلاقات الدائمة للحياة.

نحدد بدقة وبصورة خاصة أننا في تطورنا، سنبقى دائماً في المستوى الأكثر ابتدائية وأصلية والأكثر تعلقاً بالرتابة دون أن نوغل في عمق التأمل في علم الدلالة التركيبية أو رياضيات المدارس التي استخدمناها رغم ذلك. لقد توقفنا دائماً على مستوى التجربة لأننا لا نعتقد أن الإنسان يستطيع أن يعبر عن نفسه بأعلى من مستوى يده^(*).

(1) غوته (1749-1832). كاتب ألماني شهير. من مؤلفاته الذائعة الصيت: فاوست، آلام ورثر.
(*) دراسة نشرت عام 1930 تحت عنوان «مطبخ الملائكة» كانت أول مقاربة إلى الدراسة الحالية ولقد حصلت تلك الدراسة على جائزة «اللقاء العالمي» لكن أسلوبها الموغل في الوجدانية أساء إلى دقة الفكرة.

الفصل الأول

الإشارات ونظرية الحركة

الفكر الإنساني مطابق لنظرية الزُّمر

أ. أدينغتون

أولاً - من الحسّ إلى المعرفة

كان إنسان الأصول ككل نشء أوليّ، لكي يضمن سلامته أو ببساطة أكثر لكي يضمن البقاء، مرغماً، في كل لحظة على أن يولي عناية كبيرة بالإشارات التي ينقلها إليه مجرد وجود المخلوقات أو الأشياء حوله. إنها من جهة أخرى ضرورة قائمة دائماً رغم مخادعة المدنية بإضعافها. فنحن اليوم كما كنا بالأمس ملزمون بممارسة رقابة دائمة بشعور باطني معظم الوقت على محيطنا اليومي كالطعام مثلاً والمناخ وحركة المرور واللقاءات العفوية العديدة التي لا تزال تجربتنا بعيدة جداً عن تقويم كل احتمالاتها. ومنذ البداية، كانت حياة الإنسان مرتبطة بفعل المعرفة إذا أمكن تطبيق هذا التعبير الطموح على انتباه غاية في البدائية.

اليوم كالأمس، يختلف نقل الآثار التي تغشانا من البيئة المحيطة تبعاً للجهاز المستقبل. والحواس الثلاثة الأكثر إيجابية، اللمس والذوق والشم، تلتصق، إذا جاز القول، بمادتها التي هي قريبة جداً بصورة عامة. بهذه الحواس يبدو لنا أن معرفتنا تتطابق مع حسنا. مع ذلك، يصعب علينا غالباً أن نعزو إليها ذاتية محدّدة. فاللمس

أعمى متعدد التكافؤ وضعيف الانتقاء. إنه يخلط مفاهيم مختلفة تابعة للأشياء الملموسة: شكلها، وزنها، حرارتها، مقاومتها وتركيبها. وبالعكس ذلك، إذا حاولنا وصف المذاقات التي تكشفها لنا حاسة الذوق، لأن أصل كل منها قاصر عليها تماماً وبعيد جداً عن كل مقارنة، يمكننا أن تسمح لنا بربطها بمعايير ظاهرة أو متقاربة فقط، سلمنا بتقسيمها بشكل إجمالي إلى أربع فئات: المرّ، الحامض، المالح، والحلو، أضافت إليها الصين الحامز أو الحريّف. أما عن الروائح التي نشمها بحاسة الشم التي نحن بعيدون عن استخدام طريقة كشفها على غرار إخواننا من عائلة الثدييات، فإننا نقسمها موضوعياً إلى مجموعتين أساسيتين: الروائح السائغة والروائح المنفرة في حين أننا لو اعتمدنا على قدرات أصدقائنا الكلاب والقطط فإن ألوف الروائح في العالم مميزة بالنسبة إليهم كتمييزنا لوجوه أصدقائنا.

حاستان أخريان أكثر عقلانية: السمع والبصر تعطينا مصادر الإعلام بصورة عامة خارج مدانا. فمن رائحة زهرة إلى رنين جرس إلى بريق نجمة يزداد المصدر بُعداً إضافة إلى أن بريق النجمة المرتد إلى الماضي يرجع إلى ألوف السنين الضوئية. ولا ريب أن قدرة البصر توازن طبيعته الحدسية. ولكن إذا كانت العين قادرة على رؤية ضوء شمعة على مسافة سبعة عشر كيلومتراً، فإنها لا تسمح لنا بأن نؤكد أن الضوء هناك مصدره شمعة.

وفيما يخص السمع، فإن دائرة الأصوات المسموعة بالأذن تتحدد بعشرة أو أحد عشر إعادة «أوكتاف Octave». ولا بد أن يكون الإنسان موسيقياً حاذقاً ليحدد بربع النبرة النغمة التي أصدرها الصوت المسموع.

وهذه معلومة لا يمكن أن تفهم إلا من قبل موسيقي آخر على مثل هذا الحدق.

وعدم الدقة الذاتية هذه لحواسنا تنجم عن واقع أنها تنبعث كلها من جلدنا ومن حاسة اللمس التي كان «أبقراط»⁽¹⁾ ينظر إليها كحسّ أساسي. أما حواسنا الأخرى

(1) Epicure فيلسوف يوناني 341-270 قبل الميلاد أسس مدرسة في أثينا عرفه ديوجينيس لوكريس؛ يتحدث عن المشاعر في المعرفة والأخلاق والرغبات ولذات مفهوم السعادة.

فقد انفصلت بتميز طبقة المضغفة الجنينية الظاهرة في حين تحتفظ من أصلها المتواضع بكثير من سطحياتها. أضف إلى ذلك أن رسائل الخلايا الحواسية التي عددها لا بد أن تمر عبر مراكز عصبية عديدة: المخ، الغدة النخامية، منطقة الدماغ المتوسطة عند قاعدة المخ «هيوتالاموس»، الجسم المنحط وقشرة الكظر. وهي التي تقوم بدور التركيب لهذه الرسائل وإيصالها إلى الخواص الحركية التي تحولها بدورها إلى حركات عفوية أو غير عفوية تسمح بتعريفها عقلياً.

منذ زمن طويل أضاف «لايبتز»⁽¹⁾ إلى القول المأثور الذي كان يرّد في حينه: «ليس من شيء في العقل الفعال غير موجود أولاً في الحواس» تصحيحاً جوهرياً بقوله: «إذا لم يكن هو الوعي الفعال نفسه»، الذي يعيد إلى المقام الأول من إدراكنا إشارات فكرنا الحيوية. ولقد قال «بلين»⁽²⁾ كذلك «إننا نرى بواسطة الفكر».

وعلم النفس المعاصر يسمي التفسير الذي يقوم به عقلنا المداعي لكل إشارة مرئية «الإسقاط النفسي» الذي بدونه يبقى ذلك التفسير غير مفهوم. وألبرتي⁽³⁾ في زمنه اكتشف هذا الفعل عند الفنان. فكل رسالة جديدة يعترضها حاجز مشبك من سمات شخصية بحتة. ويبدو من جهة أخرى أن عبارة «الطباعة الفوقية» التي جعلتها السينما مألوفة لدينا ستكون أكثر إيجاء للذكرى من كلمة «عَرْض». ستجعلنا نفهم بشكل أفضل الطبيعة الرجعية لهذا الطرس من الصور الذي يحیی إزاء كل إدراك حسيّ جديد إحساساً قديماً يعود إلى الظهور بصورة فطرية.

بإيجاز، لا شيء يمكن أن يكون مفهوماً من جانبنا دون أن يثير واحدة من ذكرياتنا. لا يمكننا تقبل شيء قبل أن نتمكن من تقريره من شيء آخر سابق حفظناه في

(1) ويلهلم لايبنتز، فيلسوف ورياضي ألماني 1646-1716، مؤلفاته كتبت باللاتينية أو الفرنسية يحاول فيها ربط الأفكار الإنسانية بالمنطق. وهو مبتكر الحساب التفاضلي ويعتبر أن الله مصدر كل شيء.

(2) Plin عالم طبيعة وكاتب لاتيني 23 - 79م. مؤلف كتاب التاريخ الطبيعي في 37 جزءاً.

(3) ليون باتيستا ألبرتي، عالم بالآداب القديمة ومهندس فلورنسي 1404-1472. جعلته أبحاثه عن الألوان والهندسة أكبر عالم نظريات علمية وفنية في عصر النهضة.

ذاكرتنا. ومفكرو كل الأزمنة كرروه بلا كلل. يقول أفلاطون «إن معرفتنا تتعلق بتنبه النفس بعد اتصالها بالبدن». وكلمة ألم لا تبدأ بالدلالة على شيء ما إلا في اللحظة التي تعيد فيها إلى ذاكرتنا إحساس سبق أن شعرنا به. والقول لديدرو⁽¹⁾. ويقول جوتيه «لا نرى إلا ما عرفنا» ويقول كاسير⁽²⁾: «لا يمكننا تقبل وجود شيء إذا لم نستطع إعطاءه تفسيراً ما». وهذا التطابق بين تجربتين بعيدتين اكتشفه «بروست»⁽³⁾ بعد كثيرين سواه بتوسيع مدى تطبيقه لدرجة مزج بيئتين جغرافيتين وشعوريتين، آونتين ومكانين في حياته، أعادتنا إلى الانبثاق طعم حلوى كومبري اللذيذة وملامسة بلاط سان مارك المتباين الحجم.

كل إحساس يرفع إلى سطح الضمير من جديد رسماً خيالياً ذهنياً كان منسياً وإشارة ترتبط بإحساس سبق اختباره، الأمر الذي يسمح بتصنيف الإشارة في مجموعة الذاكرة الموضوعية وبالتالي التعرف إليها وقبولها. ولقد وصف جومبريتش هذه العملية بكلمة، قال: «حلٌ رمز رسالة هو حلٌ لشكلٍ رمزي».

ثانياً - من الحركة إلى الإشارة

لم يبق إنسان العصور الأولى الذي فاجأناه في بداية هذه الدراسة يسهر على المخاطر والمسرات التي تستطيع احتواء بيئته، لامبالياً أمام المشهد الجديد الذي كان يمكن أن يظهر أمام عينيه. كان يرد عليه برد فعل مخصص، يأخذ شكل إيماء انعكاسية، حركة أو صرخة مثلاً، يعبر بها عن انفعال ما، خوف أو رغبة، استمزاز أو

(1) دينيس ديدرو، كاتب وفيلسوف فرنسي 1713-1784 كان يعتبر أكبر فلاسفة عصره لكن شهرته تعود إلى إحيائه الموسوعة - أنسكلوبيديا - طيلة عشرين عاماً.

(2) إرنست كاسيرر فيلسوف ألماني 1874-1945 حلل الأساطير والأديان والرموز في كتابه «فلسفة الأشكال الرمزية 1923-1929».

(3) هناك اثنان يحملان هذا الاسم لكن الأرجح أن يكون المؤلف قد أشار إلى جوزيف لويس بروست الفرنسي عالم الكيمياء 1754-1826 لأنه واحد من الذين عملوا في تحليل الصوت ووضع قوانين العلاقات الصوتية.

فضول، مفاجأة أو إعجاب. والحركة نفسها متواجدة في الحياة وسابقة للكلمة بملايين السنين، الكلمة التي ليست إلا نمطاً لاحقاً استقر في الفم. الإنسان البدائي عبر عن نفسه أولاً بالحركات التي أصبحت إشارات بالنسبة إلى بطاقته، لأن إنسان العصور الأولى هذا لم يكن وحيداً في الدنيا. كان يعيش كما كان يعيش دائماً وكما لا يزال نعيش اليوم، أي في مجتمع. وبعد أن عُزل اصطناعياً كسمقبل للإشارات، علينا أن نعتبره بدوره باعثاً للرسائل ومادة ذات دراية ممكنة لكنها رفيعة الامتياز لأن إشارات شخصه المعروفة من قبل من حوله كانت مفهومة فوراً من قبل إخوانه في العرق والقبيلة. كانت تثير لديهم تأثيراً جميلاً في طبيعته لأن المرء لا يحسن التجارب إلا مع ما يستطيع هو نفسه تكراره ما دامت الإشارات تفعم الفجوة التي تفتح بين الإدراك والفكر.

وكل إشارة مسبقة بامتصاص عميق ملء الصدر، وهو أول طور من الإيقاع التنفسي لأن التنفس كما يقول ريلكيه⁽¹⁾ مهد الإيقاع يتبعه، بعد فترة تمثل الأكسجين، زفير يعبر عنه بشكله الأكثر بدائية بصيحة. وهذه الصيحة، الزمن الثالث للإيقاع التنفسي وأول ظاهرة حياة للطفل الوليد، تدل على أن كل فعل منحة من الذات وأن على كل إنسان، إذا جاز القول، أن يزفر لكي يعمل. إنه يستخدم احتياطيه من القوة ليخلق تبعاً لقانون ترمز إليه الخرافة الهندوكية بالنوم الكوني «لبراهما» الذي يخلق من كل زفير غالماً يمتصه الشهيق التالي بإيقاع ألفي حتى إعادة خلق جديد.

وإذا كان جوتيه قد افترض أن «البداية كانت الفعل» فإن «هانز فون بولو»⁽²⁾ فضل بحق «إن البداية كانت الإيقاع» ما دامت كل حركة أو إشارة اضطرابية في بدايتها تتحول بالتكرار إلى إيقاعية، وكل إيقاع يتحكم بالاستمرارية اللازمة لكل فعل وبتحوله اللاحق وانتشاره في المناطق النفسية والفكرية للمخلوق. وإيقاع

(1) Rainer Maria Rilke - كاتب نمساوي 1875-1926 أقام زمناً طويلاً في باريس. انتقل من الرمزية إلى البحث في المعنى الإيجابي للفن والموت في مؤلفاته المتعددة.

(2) Hans von Bülow مؤلف موسيقي ألماني 1830-1894، لم أجد له مؤلفات.

لشخص يحدد حاله، إنه ثابتة في حركية، «دورية نفسية» كما يقول المتمرسون باليوغا.

لجأ الإنسان البدائي، لكي يعبر عن نفسه، إلى إشارات حركية لا تزال مستعملة اليوم، تفترض التجربة السابقة للمس لترجمة رسائل البصر والسمع بشكل مفيد. وفيما يتعلق بالنظر، وما يثير الملاحظة أن في الصين وفي مصر القديمة كان يُعبر عن الرفض بمد الذراعين أفقياً كما يفعل اليوم شرطي السير ليقطع طريقنا، وفي الهند، «المدارس» تلك المعلومات الإيمائية التي تشكلها أيدي الراقصات تترجم أكثر الفوارق براعة في الفكر. و«اللاترابيون»⁽¹⁾ المعاصرون يتصلون فيما بينهم بفضل أسلوب لغة البكم التي تتألف من ألف وثلاثمائة إشارة.

وهناك وسائل أخرى تتعلق بالسمع كما تتعلق بالبصر. يتبادل زنوج افريقيا المعلومات المفصلة جداً بواسطة الصفارات منذ زمن بعيد وأهل القوقاز بالطبول كما يفعل الهنود الأمريكيون بواسطة نيران الدغل.

ونعرف عقود قبائل الإنكا - الكيبوس - وحباهم الرفيعة ذات العقد التي كانت تستعمل كذلك في الصين القديمة والعصي ذات الحفر الصغيرة لدى قدماء السكندنافيين والتي لا تزال تستعمل كإشارات تموين لدى بعض الخبازين في المقاطعات الفرنسية.

وهكذا، أستطيع اختبار ذكاء الحيوانات بإشارات حركية. لقد نجح الدكتور «ف. دوفيلي Ph. de Wailly» بالتحدث مع الشمبانزي باستعمال حركات الصم والبكم. والكائنات في المجتمعات الحيوانية الفوضوية أو الرهطية تتصل فيما بينها بفضل إشارات مختلفة. ونحن نعرف رقصات النحل الإعلامية وإشارات النمل ذات الرائحة أو فوق الصوتية وتغريد الطيور وعروضها الطقسية والمائة والأربع عشرة

(1) لاترابي Trappistes، رهبان في دير لاتراب يمتنعون عن الكلام وهم رجال دين يتبعون مذهباً في دير أسسه روبر دو موليسم عام 1098 في شاطئ الذهب لايواء فرقة من اتباع القديس برنار يقوم على أساس المناجاة الروحية.

إشارة رنانة التي تتبادلها الغربان ونخير الإسناد الذي تصدره الدلافين ورادارات الخفافيش، الأمر الذي يسمح بافتراض وجود تقنيات إعلام لا تزال مجهولة لدى الأنواع التي لم تتم دراستها بعد.

وعودة إلى الإنسان، تشكل عفوية الحركات الأساس لأسلوب كلاسيكي مفروض على الممثلين والراقصين والخطباء يعلمونهم أن الكلمة يجب أن تسبقها حركة بل وأن يحل في الغالب محلها لون من إعادة التشكيل الآني للأسلوب الكلامي. وما يمكن أن يبدو كمجرد حذق في الحرفة هو في الواقع قانون مرتكز على ضرورات الحياة الاجتماعية.

يمكن القول إن التعبير الفكري الأكثر تجرداً يبدأ ومن حيث تكونه المصدري، بحركة انعكاسية وهي حركة ناطقة ومبكرة لدرجة أن طفلاً في الثالثة من عمره يمكنه بحركات أن يعلن لعالم نفسي ما إذا كان سيصبح سيداً أو تابعاً. والانفعال الذي هو المصدر، يظهر الرباط الذي يجمع الفيزيائية بالنفسية والذي يعبر عن كلمة الشعور التي كان ريمي دو جورمون Rémy de Gourmont⁽¹⁾ يرى واقع الإحساس والفهم متمزجين فيها. فالحركة الذاتية تصبح بالتكرار التعبيري بارزة بين تكون عادة وفهم ظاهرة ميلاد رمز أو شعار.

هذا يسمح بفهم أفضل التفسير الشامل لضرورة إعطاء كلمة حركة معنى حالة جوهرية تستخدم الأحاسيس الأكثر تبايناً: السمعية والبصرية والشمية واللمسية. ومن وجهة النظر هذه، يمكن اعتبار كل حي تركيبة موروثية من الحركات وكل جسم مجموعة عاملة من الحركات المحددة التي أصبحت أعضاء فأجهزة. بذلك تكون لحركة الخلف الحيوية قديمة مرسخة ستبقى «الرأس الباحث» والعامل الوحيد الحر والخلاق. ولما كان كل مخلوق يعتمد إلى نسخ ذاته فإن علم الأعراض الحركي يمكنه أن يزودنا بأفضل تعريف للسر الديني وللشعائر التي هي تكرار حركة سلفية.

(1) دو جورمون، كاتب فرنسي 1858-1915 وناقد أدبي من المجموعة الرمزية.

ثالثاً - الأنا كمصدر

حركاتنا لا تفصح عن مشاعر أولية فحسب بل تحمل علامات أكثر شمولاً وأصاله. إنها تحدد أبعاد لون من المسح الفيزيائي وتضع حدوداً لقدرتنا التعبيرية وتقيم حولنا نطاقات عنيفة لأبعاد الفضاء الثلاثة حيث نتعلم إحلال قوامنا فيها. ثم إننا نحمل هذه الوجوه مسجلة في ذاتنا مدججة في القنوات نصف الدائرية لأذنا الداخلية بالاشتراك مع «الستاتوسيست»⁽¹⁾ التي تحكم توازننا الفيزيائي والفكري. وهذا الطابع الكوني الذي يحمّل الأنا بخول كلاً منا دوراً في عالم أفلاطوني صغير «ميكروكوسم» ومقياساً شاملاً ومقاماً مركزياً أظهر «شيلنج»⁽²⁾ Schelling في حينه أهميته كمبدأ ومنشأ. وحركاتنا تبرز سلطة هذا الأنا التي تكونها مرسمة السينما الداخلية وحياة فكرنا نفسه كما قال «بلايك»⁽³⁾. وغزارة ذكرياتنا وتجاربنا ترفع كلاً منا إلى مهمة شاعر خلاق لثقافة عيشت وغذيت بالمشاعر المختبرة والإشارات المقبولة المتحصلة من الأسلاف والمنقولة إلى الأجيال المستقبلية.

وهذا الأنا الحميم مركز أفعالنا ومصدر معادة معرفتنا الحدسية، يتعمق فينا إنطلاقاً من سلطة مطمئنة ومؤقتة. وقوانين المنظورات التي تصغر كلما بعدت عنا تسهم في تغذية الهيمنة المتملقة التي تقنعنا بها نرجسيتنا. ونرجسيتنا هذه تدفعنا إلى دمج كل ما نراه كإنعكاس لأننا في مرآة الأشياء واعتبار كل موضوع تابعاً لنا نعطيه الحياة والإدراك ونربط ذاتنا بكل ما هو ملموس.

(1) Statocyste قناة مخوفة حافلة بحبيبات ثقيلة ومحاطة بحاجز حساس يزود العديد من مجموعات الحيوان توجيهات في حقل الجاذبية.

(2) فريدريك ويلهلم فون شيلنج، فيلسوف ألماني 1775 - 1854 حلولي يعارض بأفكاره فلاسفة الموضوع أمثال «كانت» وفيختز» وفلاسفة المطلق؛ له كتابان: آراء حول فلسفة الطبيعة 1797 وفلسفة الميتولوجيا 1842.

(3) وليم بلايك، شاعر وكاتب إنكليزي ورسام 1757-1827، مؤلف ديوانين، وهو أعمق مفكري عصره.

وهذه الخاصة الحدسية الكاشفة تثير مشهد الكون أمام أعيننا كما قيل بأن تخلق فيه حيوية شبه عضوية تفسير إحيائية الفكر الفطرية. وهذا التعريف الذاتي الذي يكتشفه الإنسان في الكون يمتد كما ارتأى «كاب Kapp» حتى نقل الشكل والفعل إلى حواسنا لا في الأدوات التي هي مجرد امتداد بل في السموات الطبيعية، إلى تلك التي تنتجها صناعتنا.

ولم يكن بروتاجوراس Protagoras ينادي باعتباطاً بأن الإنسان هو مقياس كل الأشياء. هناك نزعة حافظة دائماً لا تقهر تحرك هذا التجسيم والتشبيه البدائي الذي يبقى دائماً جوهر كل قصيدة وكل تصور. وتكون شكلنا «المورفولوجيا» أمدنا بالنماذج المثالية الأولى لمذهبتنا «الإيديولوجيا» بوحداتنا القياسية: الباع، الذراع، الشبر، البوصة، القدم والخطوة. وهذه الخطوة هي التي تقيس الوقت كذلك لأنه يخضع للايقاع التنفسي، وأول أداة للإنسان كانت جسمه وفوق كل ذلك يده التي هي نموذج الأدوات التالية. أداة كل الأدوات كما قال أرسطو.

واستطاع ذلك البدائي الذي كناه، وبعد أن استوى في وضعه الرأسي، أن يمسك ويعدل بيده التي أصبحت حرة أدوات صناعته، وبقولنا إن للرجل يداً نقصر دوره بشكل خاص لأن تلك اليد تمده تماماً وثلاث عقله مسخر لها. وبفضل حساسية أرفع من حساسية بقية أجزاء الجسم، باتت هذه اليد الأداة الكاشفة عالية الجودة منتجة الأشياء فاعلة الإشارات وبات الجسم أداة متعددة التكافؤ. ثم إن كلمة إشارة تأتي من اللاتينية التي لها جذر فعل «قطع» الذي أعطى كلمة منشار. والإشارة هي ما حزته اليد في لحاء شجرة. والإنسان يدع في كل ما يعمل ويمسك بيده بصمة أصابعه التي تُعرف سماتها الكاشفة. والروابط المتميزة التي تجمع المجالات الدماغية المحركة بروابط النطق الواضح تسمح لليد بأن تبين للإنسان الذي يتكلم والذي يفكر والإنسان الذي يعمل. ومرحلة «فعل» ليست إلا معبراً لخاصية «قال» والاشتقاق في اللغات الهندوأوروبية يبين أن كلمة قال مشتقة من جذر يعني دلّ بالأصبع.

وبالفعل، حتى عندما اجتاحت دائرة الفكرة المجردة، لم يُضعف ارتباط رؤيته لعالمه إخضاع حركات يده المدونة في إطار أبعاد الفضاء الثلاثية التي لا تُحترق.

رابعاً - الصيحة كغناء

ظهور النطق باعتباره ثمرة من الفم بتحريكه مشكلة باطلّة لأنه ولد مع الإنسان. لم يكن مبكراً ولا أقل فطرياً من صيحات الحيوانات: حشرة النمر، هديل الحمام، صهيل الخيول، نخير الخنازير، حوار البقر. كل هذه الأصوات نسميها صيحات لأننا لا نفهمها.

ولقد تحرر النطق رويداً رويداً من بدائية الغناء التي هي الصرخة وهي ما يجعلنا الكثير من المغنيات ألا ننساه. لقد وُلد من مقطعية الصيحة والتنهد ويبقى في كل المناسبات موسيقياً بشكل قوي مشعباً بالأحاسيس الابتدائية كالتّي تبرزها على سبيل المثال التهليلات أو هتاف الجماعات التي حركها الإعجاب أو الغضب. وبدءاً من الغناء الشعبي والغريزي الذي تتفجر فيه بهجة العيش ومروراً بالأنشودة الرتيبة القديمة والتراويل الدينية والمأسويات العاطفية وحتى التكلم النثري البسيط، نلاحظ تدهوراً غير ملموس في الثقل النوعي للموسيقى دون أن تختفي تماماً. وهو أمر مستحيل كما تثبت الإيقاعات المختلفة التي تعدل النطق الملزم لبعض اللغات كالصينية أو الكلام على طريقة توي «Twi» الإفريقية. وهناك علاقة دائمة تربط بعض الأحاسيس وبعض الأصوات، تُشعر بالتمائل الغامض الذي يجمع الموسيقى والحياة الداخلية في تجانس لا يزال مفتقراً إلى الدراسة⁽¹⁾.

ويعرف علماء الأصوات أن كل كلمة قابلة للتحقق وفريدة ولو بإيقاعها حتى عندما يُفرض عليها رتبة الإرسال على غرار القراءات التي تجري خلال الوجبات في

(1) Cf. La musique et la vie intérieure, par L. Bourguès et A. Dénéréaz, Genève, 1921.

الأديرة. فكل صوت يمكن معرفته بفضل الالتواءات والنبرات الخاصة به وهي ذاتية لكل صوت على غرار بصمات الأصابع.

وواقع أن نبرة منظمة لم تعد تقود الكلمة لا يمنع من أن تكون إيقاعات الجملة قابلة للتلحين والتسجيل والدراسة، بإغفال معنى الكلمات دون أن يسيء هذا الإغفال إلى فهمها ولا إلى لطافتها الانفعالية.

إنها مفارقة يحققها المشاهد لشريط صامت أو لمسرحية تقدم بلغة لا يعرفها لا يستطيع خلالها أن يدرك غير الحركات وأن يسمع الأصوات. سيتوغل فيه جو المشاعر بشكل كامل وقد يكون بشكل أعمق مما لو كان يفهم الجمل التي غالباً ما يخالف معناها القصد الخفي. ليست هناك حاجة لفهم الكلمات إلى ضبط مداها ومزاج المتكلم وكآبته ونفاقه وحقه. إن كلابنا وقططنا تثبت لنا كل يوم أن النبرة أفضل من الأغنية وأعني من النص. إنه سر النجاح المدهش لبعض الخطباء والمحاضرين الذين لم يتهافت سامعهم لرغبتهم في أن يتعلموا منهم شيئاً بل لتلذذهم بسماع صوت لا يتكلم بل يغني.

وُلد النطق من توافق عرضي عُرف وقُبِل بين شعور ومناظرة بُثَّ من الفم بفضل إيقاع الصوت مع ذلك الشعور. واليوم أيضاً نستطيع أن نلاحظ أن في اللغة الأكثر نأياً عن مصدرها بعض الأحرف الساكنة تترجم ببعض المشاعر بأكثر إخلاصاً. ففي اللغة الفرنسية مثلاً الحرفان الشفويان «باء وميم» «B-M» يحدثان حركة فتح الشفتين الضرورية لنطقهما وهو ما يسهل بالوقت نفسه واقعة الشرب Boire أو الأكل Manger والعَضُ Mordre والدمدمة Murmurer وفغر الفم Béer. وحرف التاء السنّي T مشتق بالطبع من رضع Téter، حَلَب Traire، وشَدَّ Tirer. والحرف الحلقي G مشارك في فعل زجر Gronder، نبَح GLAPIR، وزَعَق Gueuler ونَفَخ Gonfler، وحرف الراء R يذكر بالسيلان Ruissellement والانقضاض Ruée، وحرف اللام L البطء والارتخاء Lenteur, Langueur. ولقد لوحظ أن الأحرف الصوتية A.O.U. تبدو أبعد من الحرفين الحادّين E و I اللذين يبدو أن أكثر قرباً. وهذه التناغمات هي بقايا

تشهد لصالح علاقة متبادلة قديمة بين الموضوع والشكل، بقايا لغة شديدة القدم تحفظ آثار أصل شبه حيواني أو سماوي.

واليوم، هجر اللغويون طموحات علماء القرن التاسع عشر الذين كانوا يبحثون عن اللغة البدائية. وكل ما يمكن قوله عن ظهور الكلمة ليس أكثر من فرضية مقامة على إعادة تشكيل متعلق بعلم النفس في مجابهة مع أكثر حالات اللغات قدماً التي أمكن تحديد زمنها بواسطة جهاز الغلوتو كرونولوجي Glotto- Chronologie⁽¹⁾ الجديد.

افترض علماء اللغة الانجلوسكسون عدة مصادر لدلالة اللغات:

1 - مصدر تقليدي: (نظرية ال- بوو-ووو Bow-wow)، يقول إن اللغة مشتقة من الكلمات الصوتية التي كانت تقلد الضجيج أو الأصوات الطبيعية.

2 - مصدر انفعالي: (نظرية البوه-البوه Pooh-Pooh)، التي تقول إن اللغة تكونت بالتوالي إنطلاقاً من الأصوات المعبرة غريزياً والمشاركة مع أحاسيس محددة.

3 - مصدر تناغمي أو انسجامي: نظرية دنج-دونج Ding-Dong، التي تزعم أن اللغة تثير ارتباطاً رمزياً بين صوت ما وأثره الانطباعي.

4 - مصدر اجتماعي: نظرية يو-هي-يو Yo-He-Yo، التي تزعم أن اللغة ولدت من الأنغام أو الألحان الجماعية المصاحبة للجهد العضلي والوزن الإيقاعي للحركات الجماعية لأسلافنا في العمل.

وهناك نظريات أخرى تذكر بتطور أول تغتة طفلية والغناء العفوي دون أي سبب غير إثبات وجود... لكن أي نظرية من هذه النظريات ليست مطلقة ولن يكون

(1) الكرونولوجيا هي تاريخ تسلسل الأحداث بمجدول زمني تاريخي. والأمر هنا لا يتعلق بجهاز بل بدراسة جديدة لمنشأ اللغات أو اللغة إستناداً إلى معاني الكلمات.

مستبعداً تحويلها إلى مصدر مشترك. ويمكننا أن نستبقي منها الظهور المتزامن للإنسان والكلمة، أيّاً كانت درجة التطور. وكل المناسبات الموصوفة في كل من هذه النظريات لعبت دوراً ولا ريب سواء بشكل منفرد أو مشترك. وأن تكون الصيحة بضغط إحساس عنيف تُعبر عن رغبة أو تُبلغ أمراً أو تظهر حركة يتوجب فعلها أو تتطلب عوناً قد تُرجمت من قبل المشاهدين اتصالاً صريحاً جلياً تتوجب طاعته، كذلك ولدت اللغة وولد الرمز معها بمشاركة أحساس بموسيقى الصوت.

خامساً - من الاسم الخاص إلى الكلمة العامة

العلاقات الإنسانية عند الأوائل كانت أكثر ودية ونمواً بكثير مما هي عليه في بلادنا المتحضرة حيث تعبت بحماسة متطابقة دُرَجَة (موضة) التكتيفات التجمعية. مع ذلك، في تلك الأزمنة القاسية التي يضيئها فجر التاريخ الملبس، كان التكافل القبلي ضرورة أكثر إلحاحاً مما هو عليه في أيامنا. كان يُفرض بشدة بحيث كان النبذ اليوناني المشهور الذي يستبعد شخصاً من الأسرة أو القرية أو المدينة يعادل عملياً حكماً بالإعدام.

وهناك في الواقع لدى المخلوقات الحية، سواء الحيوانات أم البشر، حاجة دائمة إلى التجمع لتجنب عزلة كانت رهيبة فيما مضى، للمشاركة في ألعاب جماعية أو عمل صعب أو لمجرد أن يكونوا مجتمعين يتمتعون بحضور متبادل مدفوعين بشعور التواصل الذي يريد علماء الأخلاق المعاصرون عزوه إلى الشبقية الفرويدية الذائعة الصيت مع أنه مجرد نمطية.

كانت أكثر أفراح أولئك المرغمين على التفرغ من الأسلاف البدائيين تقوم، في ظروفهم المعيشية، على أساس التحالف وتبادل الأمكنة العامة والأفكار الجديدة بدءاً من القيل والقال اليومي حتى النقاش الرسمي الممل المفعم الذي كان يقود لأكثر بلاغة إلى الشعبية والسلطة. وضرورة التكلم بشكل صحيح ومعرفة اللغة شكل كامل كان يضمن لهؤلاء أهمية الحفاوة القبلية. وكانت من جهة أخرى محمية

من كل علة أو خطأ بالتنمية الخارقة للذاكرة التي بفضلها كانت ألف اباء الشعر تُدرّس وتُحفظ وتُنقل بمجرّد تقليد متبع وهو الأمر الذي لا يزال قائماً لدى بعض الأقبام دون كتابة. هذه اللغات القديمة المتداولة والواقعية وموضع الاهتمام كانت تثير كل كائن مألوف وكل ما يمارس يومياً في وضع معروف وفي فترة محدّدة من وجوده، بتفاعلية مجموعة من الظروف الإيجابية تدرّج من قبل أولئك الملاحظين الذين لا يُعلّى عليهم وهم الأقدمون. وهذا الجمع المتزمت بذكر الوصفيات كان يسمح بتبيين الكائن أو الشيء موضوع القول بكلمة واحدة دون جدال.

وعلى سبيل المثال، كانت اللغة العربية الكلاسيكية تضم أكثر من خمسة آلاف كلمة تتعلق بالجمّل. لكن كل كلمة منها كانت مدخّرة للأعراب عن واحد من المظاهر، واحد من أبسط تفصيلات تكوينه التشريحي وهيئته وسنّه وكسائه وعاداته وأصواته، كل ذلك خلال وضع شديد التحديد من حيث الزمان والمكان دون التحدّث عن نموه وصحته وعيوبه وأمراضه وخصائصه. أن يُستطاع القول ماذا كان الموضوع المثار، وبماذا كان يتعلّق، وفي أي مكان وقع، ومع من، ولماذا وصل إلى هناك، وكيف وفي أي وقت، تلك كانت المسائل التي كان يمكن للمفردات الجمليّة أن تجيب عنها بكلمة واحدة، ولكي تستجيب لكل هذه المعطيات، كان على الكلمة المتناظرة أن تكون اسماً خاصاً لا يمكن أن ينطبق في حالة ما إلا على شخص واحد على طريقة شروط التعيين في مركز ما التي تنطبق على مرشح واحد يتميز بها ويكون المركز محفوظاً له مقدماً.

كان لكل عائلة لغتها كما هي عليه الحال اليوم حيث تبقى المحادثة بين متآلفين، يفاجئهم غريب يفهم اللغة، غير مفهومة عملياً من جانبه إذا لم يكن مطلعاً على كل علاقة تضمينية تحويها كل كلمة من جانب أعضاء هذه الأسرة.

لكن مثل هذا التخصيص المتعلّق بحقيقة مجسّدة كان يعدّ كل تعميم ويمنع التعبير عن الحركة والتغيّر الذي لم يسهل إلا بتحويل الاسم الخاص إلى الكلمة العامة، أي بتحويل الاسم إلى رمز. والعمل الجماعي بصورة خاصة سهّل هذا التحوّل. واستعمال الأدوات ألزم باستعمال اللغة بشكل أكثر يسراً. إن المصدر الحرّفي لأكثر

الأفعال يشهد لصالح هذه الفرضية. فالكلمة الأولى تبدو ممتزجة بفعل حيث تكون الكلمات التي لم تظهر بعد في الجملة قد حلت محل الحركات لأن الصوت يمضي إلى أبعد منها ويستطيع الوصول إلى أولئك الذين نرغب في لمسهم والذين لا نراهم. ولو كنا نملك وسيلة مثل هذا الاستقصاء لكان يمكننا أن نعيد الكلمات الأكثر تداولاً وبصورة خاصة الأفعال في أي لغة إلى مصدر حربي قديم. والرمزية في معناها الضيق ظهرت عندما استعملت الكلمة التي لا تكاد تخرج من غلاف الجملة في التعبير عن إحساس أو فكرة.

سادساً - تطورات الحركة

إذا كان مصدر الكلمة وبالتالي اللغات يضيع في ظلام الأزمنة، فإن علم النفس والأساطير التقليدية وعلم الاشتقاق قادرة بمستندات مختلفة على أن تمهدنا ببعض الضوء على آلية رمزيته.

فنفسية الإنسان الناطق مدهشة دائماً في حالة تولدها حتى ولو فيما يتعلق بنا شخصياً. كان J.-B. Vico⁽¹⁾ و G.de Humboldt⁽²⁾ «ج.ب. فيكو وج. دو هومبولت» اللذان ترويا في هذا الموضوع يقدران تبعاً لتجربتهما ككاتبين يبحثن عن الحدود التي يمكن أن تعبر عن فكرهما، أن كل لفظ فعلي كان مسبقاً بقوة داخلية، بغريزة جنسية يجدان فيهما مصدر كل الاستعارات وهو المصدر الذي يكون الشكل القديم والخلاق «الجنيني» لنظرية الحركة.

(1) جيانباتيستا فيكو مؤرخ وفيلسوف إيطالي 1668-1744، أصدر عام 1725 كتاب «مبادئ فلسفة التاريخ» في التاريخ الخلفي لكل شعب محدد الخلق والتطور خلال ثلاثة عصور العصر الإلهي والعصر البطولي والعصر الإنساني.

(2) هناك خطأ في الاسم الأول، إنه ويلهلم، بارون فون هومبولت وهو عالم لغة وسياسي ألماني 1767-1835 بدأ بدراسة اللغات المختلفة وعمل على تجاوز قواعد اللغة المقارنة لينشئ دراسته الأنثروبولوجية - البحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعرافه وعاداته - العامة التي تبحث في العلاقات بين اللغات.

يصلح تحليل الآلية التي يبرز هذا الشعور المسبق حدسها الذي يبين لنا الطريقة التي تعرض نفسها بها على فكرنا الكلمة مدفوعة بما نسميه الفكرة. لتأمل فكرة الشجرة ولنتساءل كيف تشكلت. لم يكن السلفيون يهتمون بالكائنات والأشياء التي كانوا يعيشون بينها إلا في حدود ما يتعلق باحتياجاتهم. كان حطابو ما قبل التاريخ يميزون تماماً الدردار والسندر والبلوط والتنوب لأنهم كانوا يستعملون أخشابها ولحاءها وبذورها وأوراقها في غايات مختلفة. وكلمة محددة كانت تتفق مع استعمال خاص دون أن يفكر أحد بضرورة جمع الماهيات المتعلقة بالأشجار في تجريد لفظي واحد.

بعد رده طویل جداً من الزمن ولا ريب تكونت لدى بعض المجددين الأقل ارتباطاً بعمل مخصص والأكثر حساسية بالمشهد الجمالي للغاية كما يُظن، الفكرة العامة عن الشجرة في حد ذاتها. فكيف أتت هذه الفكرة؟ أمن غموض مختلف الشجرانيات من جانب الممتهين الآخرين؟ أم تراها أُلهمت من انبجاس الجذوع أو من التفرع الغامض للإوراق أم من مجموع هذه التشابهات؟

ولكي نساعد أنفسنا على الرد على هذه الأسئلة سنحاول ضبط الانطباع الذي خلقه فينا كما استطاع خلقه في أسلافنا قوام شجرة البلوط العالي، وبعيداً عن هذه الصورة المتفردة، قوام كل غابة قديمة. هناك أشياء أكثر جوهرية وأكثر حدة وعمومية تستدعي اهتمامنا دفعة واحدة، طاقة إنشائية لا تقوم، توتر حيوي غامض لا ينضب، نطن أننا نشعر بها في نفوسنا بتعاطف. وهذا ما يفسر الجذر المكتنز الصلب في اللغة الهندوأوروبية. أعطى جذر «Dreu» باليونانية أسماء البلوط والشجرة والإنسان الجليلد. كان الأوبانيشاديون⁽¹⁾ يقولون: «كما أن الشجرة ملك الغابة كذلك الإنسان».

(1) Upanishads كلمة سنسكريتية تعني نصوص الهندوس المقدسة التي تعتبر موحاة والتي تعود إلى نهاية العصر «الفيدى» المتعلق بالفيدا بين أعوام 700 و 300 قبل الميلاد والتي ترمي إلى تحرير الإنسان من دائرة البعث الجديد.

ولاحظ نيكول⁽¹⁾ من قبل «إن مشاهداً من الخارج هو في الداخل ممثل سرّي». وهذا الممثل البدائي الذي كان أول من جمع من المقطع «درو-كثيف-» فكرة البلوط وهندسة الأخشاب والإنسان المتكامل، يبين لنا أن الكلمات ليست لها قيمة ثابتة ومقصورة عليها بل تفعم الاستعمال. ومستعمل الكلمة يباشر كرسام الكاريكاتور الذي لا يعدل مظاهر صورته المتعددة إلا بلمسة واحدة طريقة تحدد رمزها بشكل عام لتكون مفهومة ومعللة من قبل الجميع. وإذا أحسن اختيار الحركة، فإنها ستكون معبرة كالاختبار. وعلماء النفس سيكتشفون فيها تحقق سمة وتوقيع شخصية قد يمكن أن يصبح الرمز.

بدأنا نفهم ما كان هو مبولد يعنيه باندفاعه البدئي الغامض. إنه مدخل حركة وبداية إيمائية عفوية تخططها عضلاتنا وتوليها الأشياء في حين أنها هي التي أوحى إلينا بالحركة. وكلمة «رمزي» التي تجمع هذين المفهومين المعدلين تلعب دوراً وسيطاً لفعل ما معها نلقى الوجه الأكثر بدائية لنظرية الحركة هذه التي كان رونييه جينون René Guénon يرى فيها المفتاح الحقيقي للرمزية.

ونظرية الحركة المصورة في أوسع تصور تدافع عن استرجاع الاستمرارية على كل مستوياتها لعالم تقدمه «الفيزياء الكمية» عالم يسوده عدم الترابط. إنها تعزز رباط تكافل تقديري بين الأوضاع المتفرقة خصوصاً عندما تتحول الحركة البدئية إلى إيقاع بتكرارها الذاتي، لأن السلوك الفوري، تعريفاً، يحدث آثاره بشكل متتابع ولا يفلت من العابر إلا بفضل الإيقاع الذي يحكم الحركات والعادات والرموز.

يقول لنا جينون إن هناك تماثلاً بين الرمز والعادة لا لأن كل عادة رمز تحقق في الزمن بل لأن الرمز البياني بالمقابل تثبيت لحركة طقسية. والكلمة تمثل بها حالة كثر نقاء من أي كلمة رتبية تلفظها بصورة عامة شخصية مكرسة لا يتوقف وصفها

(1) المقصود باسم نيكول هنا Nicole، بيار نيكول الكاتب الفرنسي 1625-1695 من أنصار مذهب الجنسينية المتعلق بالنعمة الإلهية ومؤلف كتاب «دراسات في علم الأخلاق» الذي صدر عام 1671-1678.

على فرديتها بل على خاصيتها الأمر الذي يحدد أيضاً كما رأينا استعمال الفاعل ودور الكلمة.

سابعاً - أولوية الإيقاع

أقدم اللغات التي وصلت متأخرة إلينا بفضل الكتاب المقدس متزامنة مع الألف الرابع أو الخامس. ولكي نرجع إلى أبعد من ذلك، لا نملك إلا البنية غير المصدقة للأساطير التي احتفظ بها في كتب مقدسة وبصورة خاصة أساطير شعوب الاستظهار والأديان الكتابية: الهند، إسرائيل والإسلام. فالكلمة ممثلة فيها كوشي سماوي يرتبط الإيقاع بها بقوة لأن هذا الإيقاع هو الذي نقل إلى الناس الحياة التي هم ظاهرة لها باعتبار أن كل شيء يرجع إلى تكرار الحركة نفسها.

وهناك تقليد إسلامي ينقل لنا أن آدم في الجنة كان يتكلم بالعربية وبلغة إيقاعية كانت حتى ذلك الحين امتياز الآلهة والملائكة ورموزهم الملائكية «الطيور». وهذه الأسطورة هي الشكل المتأخر الذي اتخذته بعد تدرج طويل من تقليد تاريخي شديد القدم حفظته لنا الكتب المقدسة «الفيدون Les Vedas»⁽¹⁾. كانت اللغة الأولية والشعرية تسمى السريانية أو الشمسية، أي لغة سورية أزلية وأسطورية جاءت النصوص «الفيدية» تقيمها رمزياً على القطب «عند طرفي محور الأرض» حيث المقر الأولي لأسلافهم الآريين حينما كانت هذه المنطقة خلال العصر البيجليدي - خلال عصرين جليديين - تنعم بجو معتدل. وهذا المركز القطبي للأسطورة الهندوكية أصبح في الميثولوجيا اليونانية «تولا Tula» الشمالية القصوى وعند اللاتين «أولتيما تول Ultima Thule»، الجزيرة القائمة عند تخوم العالم الشمالية. ولا تزال هناك مدن تحمل اسم «تولا» في سيبيريا ولا بونيا وإيرلنده وإيسلنده وإيكوسيا وفي أمريكا.

(1) كتب دينية هندوكية مقدسة مكتوبة بالسنسكريتية ترجع إلى 1800 سنة قبل الميلاد وعددها أربعة تعزى إلى ما أوحى إلى براهما وهي مقطوعات من صلوات وأناشيد وشعارات تتعلق بالتضحية والتعامل مع النار المقدسة. ولقد أطلق على المؤمنين العاملين بنصوصها اسم الفيديين.

في تلك الأزمنة القديمة، كان الإيقاع الشعري لا يسهل حفظ وتلاوة ونقل النصوص المقدسة فحسب بل كان يحدد لدى التالي (الذي يتلو) تلاوة تناسقاً للعوامل اللاشعورية واللامتناسقة لدى الإنسان بفعل اهتزازات تزامنية تنتشر في أبعاده النفسية والفكرية الذاتية، لأن الإيقاعات التي تشكل الهيكل المتعدد للطبيعة الكاملة بدءاً من جوهرها الأكثر خاصية وحتى أبعد حدودها ترد الإنسان إلى تساوق هذا الإيقاع الكوني الذي يصبح قادراً على الإحساس به وفهمه كما يمكن تصرفاته من أن تقلت من الآنية بمد محصلاتها الطبيعية وغير المتوقعة في كل أبعاد الفضاء والزمن.

ولنعد إلى أفقنا اليومي المتواضع لتبين أن الإيقاع يتحكم بتنفيذ كل عمل. إنه يجعله أكثر سهولة بنقل الجهد الذي يتطلبه إلى عائق اللاشعور والعادة بفضل الترابط بين تنفس موزون وأغاني المهنة. ولقد تكورت هذه المقومات في الوقت نفسه الذي تطورت فيه التقنيات الحرفية وبصورة خاصة بفضل التقنيين الدقيق للحركات المطلوبة لإنجاز العمل الرائع أو لمعرفة «مهارة يدوية» قادرة على إنجاز مهمة صعبة تحت طائلة الحادث أو سوء التنفيذ. والمرء يعمل دائماً بشكل جيد عندما يكون مُعداً للقيام بذلك العمل. والوضع الصحيح ضروري هو الآخر سواء للكُدح أو العادة. ويمكن الحكم على عامل حربي تبعاً لحركاته لأن الأداة التي يستخدمها لا تعمل إلا على إطالة جهد عقله ويده. ولكي يدرك هذه الضرورة لا بد أن نكون قد حضرنا الأغاني الجماعية كما حدث على سبيل المثال منذ سنوات قليلة كالـ: «ها-هان» اللاهث الذي كان فريق من عمال مد السكك الحديد يرددونه مع حركاتهم المنتظمة خلال عملهم الخطير وكأنهم فرقة تخضع لنفس عشرين شخصاً يتنفسون كشخص واحد.

وأقدم التقنيات هي تقنيات صانعي السلال والفخاريات وعمال النسيج والحدادة والحرث التي سمحت بتطور اللغة. والعليم بمفردات أي لغة عامل يدوي بالأصل لأنه حركي. وحتى اليوم، خلال أكثر الكلمات أصالة يمكن أن نكتشف حركات اختفت لحرفيين قداماء. لقد عرفوا تبيان طرائق حركية مختلفة تستخدم استعاراتها المجازية اللفظة اليوم في التعبير عن أبرع درجات الفكر. وإذا استطعنا أن نفترض شرعاً أنه كانت هناك في البداية لغات بقدر ما كان من قبائل وأسر، فإن

ضرورات التدريب والتعاون المهني بين مختلف الجماعات والقبائل سمحت بتعميم العبارات الفنية ويظهر لغة عامة يفهمها الجميع.

ثامناً - أشخاص الفعل الثلاثة

اللغة مؤلفة من كلمات تعبر عن أفعال مختلفة كان النحويون القدماء يسمونها «أقسام الكلام». سنحاول باتخاذ «كاسِير» دليلاً لنا أن تفاجيء الظهور المتوالي لهذه الكلمات خارج غموض الجملة باتباع أسلوب متكلم بدائي. سنلاحظ إلى أي مدى تسيطر حركات الأنا على خاصية هذا التطور.

وكما قال «هومبولت» من قبل، الضمائر الممثلة للأسماء الخاصة وللأشخاص، كانت العناصر الأكثر بكوراً في عزلها وبصورة خاصة ضمير الملكية الذي ظهر قبل الضمير الشخصي. وفكرة الأنا كما نلاحظها عند الطفل، لم تتحرر إلا ببطء من كل تبقى شخصيته فيه متعلقة بأشياء عائلية تحيط به للضرورة. وهذا ما يبدو أنه يبرهن على أن معنى الملكية المرتبط بحس الاحتفاظ ليس مشاركة متأخرة في حضارة متقدمة.

كل حديث أو كل رسالة تفترض العلاقة بين ثلاث ذوات، اثنتان منها تتبادلان الحديث حول ثلاثة صامته وغائبة. ولا يمكن أن يظهر فيه آخرون لأن الثالث يجسد آخر كالمجموعة البدئية. إنه هو الذي لا عمل له إلا حضور الحديث بشكل لا يبعد عن أن يكون حضوراً. وعدم التساوي الذي يميز هذه الذوات الثلاث، الأنا والأنثى والهوى، ملاحظ هندسياً في المدى بالأهمية المتناقضة التي يعزوها الأنا القائم على عرش الفعل إلى الأشخاص أو الأشياء البعيدة عنه. والأنثى يبقى على قرب مناسب ليكون معتبراً كمستأن يُطلب منه النصيح أو يوجه إليه الأمر. أما بالنسبة إلى هذا «الهوى» الذي يتحدث عنه، فإنه يختلط عن بعد بالجماعة التي هو ممثل رمزي لها. إنه «الآخر» كما يقول أفلاطون.

التصويت بالأحرف الأولية للضمائر يفضح أحاسيس المتكلم وأهمية مركزه. فحرف «I» هنا «ici» الذي يعمل صاحب الكلب على تعليمه معناه واحترامه يجسم ما

هو قريب ومن الطبيعي أن تنتهي به كلمة «أنا Moi». وبالمقابل فإن حرف «آ A» الخفيض المكرر في «هناك là-bas» يدل على إبعاد في الفراغ كما يدل على ذلك في الوقت وحتى في الأهمية التي نوليها له.

أما في الأحرف الساكنة الأولية، فإن حرف «M» في «أنا Moi» يشترك في كل ما هو خاص ومركزي كالأم «Mère» والبيت «Maison» بينما يشترك حرفا التاء والdal T وD في الاتجاهات النابذة عن المركز لكل ما هو كئيب Triste، وجِل Timoré، بطيء Tardif، وبشكل أعم، هذان الحرفان التاء والdal، هما رمز فكرة عالمية تمثل الآخر الذي يعبر به ضمير الإشارة اللاتيني «iste» عن كل ما يلفظ اسمه بدرجة من التعبير عن النفور أو الازدراء اللذين يحويهما الضمير الفرنسي «ذاك celui-là و cestuy-là» الذي ينفذ الأمر الصادر «للأنت toi».

ومع الأشخاص الثلاثة تظهر الأرقام الثلاثة الأولى التي نشرکہا بالأناء؛ الواحد، بالأنت الاثنين، بالهُوَ الثلاثة، تمثل في أكثر اللغات قدماً كما في لغة البوشيمان⁽¹⁾، أغلبية غير محدودة، أي كثيرة، كما هي عندنا وعند الصينيين كلمة مائة cent التي تُستخدم في هذا الغرض في مائة مناسبة مختلفة، وحتى كلمة «جداً très» مشتقة هي الأخرى من ثلاثة «trois».

إنها اعتبار لشخصه الذاتي، لذلك أنا المقام في وسط حيويته، الذي بدأ المتكلم الأول بالتعبير به عن علاقاته بالأشياء المحيطة به. ولهذه الغاية، استعان بأوضاع جسمه وحركات يده في مختلف الاتجاهات الفراغية. بدأ أولاً بأصبعه الدالة، سبابة يده اليمنى التي وجهها إلى الشيء الذي يريد الدلالة عليه ليلفت إنتباه لمخاطب. هذا الشيء الذي سيكتفي في المستقبل بذكر اسمه، لأن كما أذكر كلمة «قال» ترتبط اشتقاقياً بأصل يعني عَرَض، دلّ، بالأصبع. والكلمة تبدو كذلك

(1) Bochimans شعب افريقي بدويّ يعيش من الصيد وقطف النباتات المغذية في صحراء افريقيا الجنوبية في منطقة كالاهااري ويتكلم واحدة من مجموعة لغات معروفة باسم «خوازان».

كحركة متممة ومستبدلة بعد ذلك، توفر إنجاز حركة فعلية ولها ميزة أن تكون مسموعة من قبل مخاطب عاجز عن الرؤية. وبمساعدة الاشتقاق، فإن علم الأثرية اللغوية هذا الذي يماثل في رهافته في شرحه الآثار المكتشفة من قبل علماء ما قبل التاريخ، سيسمح لنا بأن نحدد الميكانيكية الرمزية للكلمات.

تاسعاً - ست وثلاثون حالة وحركة

إذا عدنا القهقري في الزمن ودققنا في الشجرة السلالية لفصيلة من الكلمات توجهها هوية الظواهر نصل إلى جذر صوتي شبيه بالكلمة أو إلى مجرد صوت تحول معناه الشديد العمومية بفوارق لا تخصي إلى كل الفروع المشتقة. لنأخذ على سبيل المثال الكلمة الصوتية «كليك-كلاك» Clic-Clac والجذر «فلا-كليك-كلاك» Fla-Clac الذي يترجم اصطناعه سطحين. قد اشتق منه سقاطه Cliquet، قعقه Cliquetis، صوت الفصل déclic، وفعل (فتح باب déclencher، وصوت أحرف الطباعة التي تسقط على الرخام Cliché، وكلمة كلافيس Clavis اللاتينية (المفتاح) أعطت الكلمات: Clore أقفل و Inclure احتوى، Conclure أبرم، Conclave بجمع كرادله. ومن اللاتينية Clarus التي تدل على صوت صاحب ولما اشتق ما هو بين وشهير ومنه أسماء الملوك كلوتير، كلودومير، كلوفيس الذي أصبح هُلوْفيس إضافة إلى التكملة الرائعة لأسماء لويس.

وإذا انطلقنا من الجذر فلا Fla الذي أعطى اللاتينية فلاتوس النفثة نجد الكلمات fiasco، flétrer، flan، flûte، souffler، gonfler، enfler (الذي نفّس) flacon (مصنوع من فراغ)، fou المجنون (فارغ الرأس)، flou، flair - ورم، نفّخ، نفّث، مزمار، فطيرة فرنه، أذبل، عجز جنسي، قمقم، مجنون، ضبابي، الشم.

فإذا جمعنا معاً الصوتية أو الجذر إلى ما يماثلها من حواسنا نحصل على مجموعتين من الكلمات صادرة الأولى عن فرقة أصبع والثانية عن نفس الفم. وبفضل معجم اشتقاق، يمكننا كذلك أن نملاً مفردات لغة بإقامة لائحة التحولات لبعض الجذور المرتبطة هي نفسها بإحدى نشاطاتنا.

وعلم الاشتقاق علم ساحر ظل زمناً طويلاً مجرد فن لكن يَبْتَنِيه سَتَبْقَى دائماً حدسية لأنها تفترض المقدرة على إعادة تكوين الشكل الأصلي للغة مستعملة خلال ألوف السنين قبل أن تصبح مكتوبة. فهي إذن عاجزة عن تقديم أي مستند ثبوتي يعطي المشروعات للتحويلات التي تفترضها والتي قدمنا مثالين محدودين عنها بأصلهما اللاتيني ومؤسسين على قواعد علم الأصوات فقط.

هذه القواعد تبدو وكأنها تيرهن عن وجود علاقة أكيدة وقرابة متماسكة الصوت بين صوت ومعنى و«حركة» وتعبيرها الناطق في هذا الصدد، يوجد لدى اللغويين موقفان متقابلان كان أفلاطون وأرسطو يدعمانها. كان الأفلاطونيون يزعمون أن العلاقة التي تربط الكلمة بمعانيها غريزية وقائمة على طبيعة الأشياء بينما أنصار أرسطو يقدرّون أنها كيفية واصطلاحية. وهذا الرأي الأخير الذي جُدد من قبل سوسّور الشهير⁽¹⁾ Saussure عاد اليوم مجدداً موضع اعتراض.

ذلك أننا إذا عدنا إلى أقدم العصور التي ظهرت فيها بوادر تحول الصامت إلى صوت، يمكننا الاعتقاد أن تسمية عفوية للأفعال والأشياء كانت مناقضة للسلوك الطبيعي للإنسان القديم الذي كان يخضع للصور الانعكاسية الشخصية. وكان مهتماً دائماً بترجمة الحالة الإيجابية للأشياء أو الإحساس الذاتي الذي يشعر به والذي تسمح له مواهبه التي لا تُجارى باحترامها بالقدر الطبيعي والممكن. وكما أنه لا يمكن من جهة أخرى إنكار أن الاتفاق قد تدخل فيما بعد لإعطاء الكلمات شرعيتها، علينا أن نجتمع الفرضيتين في واحدة بالتوفيق بين ما لكل منهما من مشروعية. سنقول إذن إن اتفاقاً لاحقاً قد أقر واقع الأمر كقانون جيد في كل ما تدخل فيه.

(1) هناك اثنان باسم سوسّور أحدهما فردينان دو سوسّور وهو عالم لغة سويسري 1857-1913، أقر قاعدة استعمال المضغة المطلقة في اللغة السنسكريتية في كتاب صدر عام 1880، والثاني هوراس بينيديكت دو سوسّور، عالم طبيعة وفيزياء سويسري 1740-1799 اقتصر أعماله على اختصاصه. ولا ريب أن المؤلف كان يستشهد بالأول.

وهذه الجذور الأم، كما أمكن الحكم عليها، لا تلعب دور الأشياء بل دور مصنفات الأحداث أو الحركات خاضعة لسير أعضائنا وفي حدود حيزنا، إنها قليلة العدد وعلماء اللغة يقدرّون أن ما من لغة معروفة تتطلب عدداً من العناصر للنطق بها أكثر من مائة عنصر بل وأقل من ذلك بصورة عامة.

إن حاسة اللمس وأبعادها العضلية هي التي تقدم في معظم الأحيان استعارات الوسيط الشفهي. ولكي يصنّف الإنسان الأول الحيوانات التي كان يعرضها كان يرجع إلى طبيعتها الحركية ويميز ما يطير وما يسبح وما يزحف أو يمشي. وعندما أراد وصف إحساس بعيد عن اللمس كاللون والطعم والرائحة، قامت الاستعارات اللمسية بالأبدال بسبب ثرائها بالمفردات وعلى الأخص الرمزية الكاسحة لليد. واليوم أيضاً نجد أنفسنا مرغمين على أن نعبر عن أحاسيسنا الداخلية بالصور الخارجية وأن نتكلم مثلاً عن حمرة حامزة ولون دافئ وعطر لطيف. الأمر الذي يؤدي أحياناً إلى عبارات عبثية مبرّرة رمزياً ومفهومة تماماً على غرار (أداء واجب remplir un devoir فتح معترضة ouvrir une parenthèse، اضطلاع بمهنة embrasser une carrière).

مع ذلك إذا كانت الوسيلة تقريبية فإن النتيجة تكون رائعة. إنها تشبه هذه الآلات التي طُبّق نظامها المنسق بشكل بالغ الحشونة ليتحمل دون تعطل ترابط أجزائه غير المتكامل وفي الوقت نفسه بنسبة مئوية من الإخفاق في حين أنها لو عوملت بدقة متناهية في الترابط لباتت غير صالحة للاستعمال. ورمزية اللغة تشبه هذا المثال. وكلما كانت الكلمة غامضة أثارت محاكاة في الصورة أو اللون أو الذوق وباتت ثمينة ومستعملة. وهذا ما استشعره فيرلين Verlain⁽¹⁾ من قبل أو منذ وقت قريب حينما قال للشاعر: يجب كذلك ألا تمضي أبداً لاختيار كلماتك دون خطأ ما...

(1) بول فيرلين Paul Verlaine شاعر فرنسي 1844-1896 كان مصاباً بالإدمان على الخمر وبتعلقه بيوديلير الكاتب الفرنسي الفذ 1821-1876، إضافة إلى إخفاقه في حياته العاطفية.

لكن الخطأ هو الذي كان يرتكبه. وما كان يبدو له نزوة في فنه كان في الواقع قانوناً في علم الرموز يشهر كل أوجه الإنشاء والاستعارة والمجاز المرسل والتلويح والمجاز المستعار ويترجم القياسات والتماثل أو التطابق.

كانت تقوم على مبدأ أن لا ترتبط بالشيء الذي تثيره الكلمة بل بالعمق المشترك الذي يرتبط به فعلها. وسوف نستطيع تحقيق هذا القانون بواسطة الاشتقاق.

كانت أولى حركات الإنسان الأول أن يمد يده ليستولي على ما كان يشتهي. وعليه فإن كل الكلمات التي تعني أخذ تعني أيضاً ألم، على غرار أمسك، فهم، تأمل (نصب فخاً). والكلمة والفكر واليد مترابطة بشكل تصبح فيه الكلمة اليد التي تنفذ على مدى الفعل نفسه. والفعل اللاتيني cogitare ومعناه تأمل يعني في الأصل حرك معاً وانتهى بأن بات يعني حرك فكرياً. والفعل اللاتيني intelligere - فهم - يعني «الاختيارين» وهو التفسير الأكثر دقة للذكاء الذي هو اختيار متواصل وحساب دائم للاحتتمالات، والذين يسيئون الاختيار هم وحدهم الذين يفترضون أن الحظ هو الذي يحايي الذين يحسنون الاختيار.

والفعل اللاتيني futare كان يعني في الأصل «قطع»، «شذب الأشجار». ولكن بتقسيم الأشياء نعدّها ومن هنا يأتي معنى عدّ، حسّب، وزن. وعندما يزن الإنسان يقدّر ومن هنا بات فعل putare يعني ارتأى وفكر.

إذا كان فعلاً أولياً وأصلياً فإنه الولادة. وفي كل اللغات علاقة وثيقة بين الولادة naissance والولادة التالية co-naissance وهي الهدف الجوهرى للولادة المعنوية التي ركز عليها كلوديل⁽¹⁾ Claudel في مؤلفه «فن الشعر». وهذه السلالة الكثيفة أصلها gen, gon, gn التي صدر عنها «قوم gens» باللاتينية ثم عائلة وتكوّن genèse ثم سلالة généalogie. وجونوس اليونانية gonos «الطفل» أعطت épigone الوريث «التابع» والحريم gynécée واللطيف gentil (وليد أسرة نبيلة)، وفعل نسل engendrer وعمم

(1) بول كلوديل كاتب ودبلوماسي فرنسي 1868-1955، وشاعر يظهر في مؤلفاته أن ما يتوق إليه الإنسان من رغبات متناقضة نزاع بين الجسم والفكر.

généraliser وسخاء générosité. ومن اللاتينية ingenium (عقل طبيعي) جاءت: النبوغ génie، المهندس ingénieur، حاذق ingénieux. ومن اللاتينية ingenuus (رجل حر) اشتقت كلمة benignus (أصيل الولادة) ومنها: مبارك Béni، رؤوف bénin، متسامح benoît، ثم: ساذج naïf، مولدي natal وأحمق niais، وعيد الميلاد Noël من كلمة novellus (عام جديد).

ومن جانب المعرفة التي تعبر عنها اليونانية بكلمة gnosis، نجد: المعرفة الروحية gnose، التشخيص diagnostic، العفاريت gnomes، الحكم الشعرية vers gnomiques ومفهوم notion. ومن اللاتينية nobilis (يستحق أن يُعرف) اشتقت: نبيل noble خسيس ignoble، و(عدم المعرفة): فعل، جهل ignorer، روى narrer ومتعذر روايته Inénarrable.

يتناقش علماء اللغات حول أولوية ظهور الفعل أو الاسم في صميم الغموض الخطابي. ولكن، لما كانت الكلمات قد سبقتها الفكرة العامة للفعل الذي عليها التعبير عنه، فإن الفعل قد انتهى به الأمر إلى تجسيدها في ذاته. فالاسم غالباً ما يُشتق من الفعل الذي قيد في حالة ما كمشارك أو في مبدأ. وعالم القواعد اللغوية الهندوكي بانيني Panini⁽¹⁾، اعترف بالميزة الفعلية للحدور. وج. جريم⁽²⁾ J.Grimm أعلن أن «الأفعال والضمائر تبدو وكأنها الروافع الحقيقية للغة» وهي الفكرة التي اتخذها جراسري Grasserie موضوعاً لكتابه: «الفعل كمولد لأقسام الكلام الأخرى» عام 1914.

ومنذ عصور اللغات القديمة إذ كانت الصيغ الفعلية شديدة الكثرة حتى الانكليزية التي أحلت الظروف وأحرف الجر محلها، نلاحظ تعرية متنامية للتعبير دون أن يتغير المعنى في الجملة. إنه نتيجة تبسيط طبيعي يرفق اللغة في الاستعمال. وهذا

(1) عالم لغة هندي من القرن الخامس قبل الميلاد صاحب مؤلف فريد عن اللغة السنسكريتية.
(2) جاكوب جريم 1785-1863، عالم لغة وكاتب الماني جمع في مؤلفاته عدداً من القصص الشعبية الجرمانية.

الابتدال يظهر العوامل الثابتة ويعلن الذبذبات المخبأة التي ارتاب هومبولت في وجودها، ولم يترك غير هذه الجذور الفاعلة التي اعترف القس بيرجييه Bergier بعددها القليل منذ زمن طويل.

وبمحاولة تصنيف الأفعال الفرنسية في عدد من المجموعات التي تستجيب كل منها لحركة توجيه محددة، توضع بترجمة حرف جر أو ظرف كما في: مع، لكي، نحو، بين، في، حول، ابتداءً من، ضد، فوق، أمام، منذ، إلخ... تصل إلى ست وثلاثين مجموعة تستنفد الاختلاف الحركي الممكن. وفي كل مجموعة، كل فعل يترجم فعلاً جماعياً ذا بناء متجانس يكون متعاضداً، الأمر الذي يجعلنا نتأكد منه سواء في وضعها موصوفة في جملة أم في واقعها، أنها ليست مترادفة.

وبينما انتهى الأمر بتصنيف الحيوانات والنباتات والمعادن حسب تكوينها منذ زمن طويل، فإن من الغريب ألا يستخدم علم اللغة هذا الأسلوب نفسه ما دام الفكر البشري قد لجأ إلى هذا التصرف منذ القدم. لذا لن يكون مدهشاً أن نلاحظ وجوده في القصص الشعبية والأدب المسرحي والأساطير.

يروى غوته خلال «محادثاته مع إيكermann» (Eckermann)، أنه، تبعاً لرأي جوزي Gozzi⁽¹⁾، الكاتب المسرحي الفينيسي ليس هناك أكثر من ستة وثلاثين موقفاً أساسياً ممكناً. ويضيف أن شيللر⁽²⁾ Schiller كان سيبدل كثيراً من العناية ليجد أكثر من ذلك وأنه لم ينجح في إيجاد هذا العدد، وليس أقل إثارة أن نجد عالم سلالة ولغة روسياً V. J. Propp قد خفض إلى واحد وثلاثين، آلية القصص المدهشة وأدوار البطل والمواقف التي تنجم عنها في كتاب أصبح كلاسيكياً.

(1) كارلو جوزي - كاتب إيطالي 1720 - 1806 كان يدافع عن التقليد المسرحي الإيطالي، له مؤلفان خياليان.

(2) كاتب ألماني 1759-1805 مؤلف قصص تاريخية عديدة تبرز بين التراجيديا الكلاسيكية والدراما الشكسبيرية.

وكأي قصة، يمكن أن يكون البطل موضوع الجملة أو الشخصية الدرامية أو الإله الذي يحكي الأسطورة. وليس مدهشاً أن تكون أفعالهم محدودة كذلك كتلك التي يمكننا إنجازها بأنفسنا في المجموعات الست والثلاثين التي اتفقنا على إقرارها ما دام أسلوب الرموز هو ذاته الذي يظهر في كل الحالات.

ولكن، أليس شاذاً أن يكون عدد الست والثلاثين المتنبأ به تعبيراً اصطلاحياً في اللغة الفرنسية يبين المرور إلى دائرة غير المحدود في حين أن عدد واحد وثلاثين في اللغة المألوفة يظهر أعلى صفة من صفات الظاهر؟

عاشراً – التماثل اللاكمي (الطوبولوجي)

نأمل أن نكون قد بينا أن استعمال الذكاء بدءاً باستخدام اللغة، لا يمكن عزله عن أصله العملي. بهذه الطريقة، استطاع الإنسان أن يؤنس مكاناً تبعث فيه الحياة الفكرية الحياة الفعلية بخطى متدرجة. خضع كل من اليد والفكر لأساليب التحقيق بالتقارب المتتالي بالتوفيق بين حركات عمل بات مألوفاً. كانت معرفتنا للعالم يديوية وقديمة قبل أن تكون بصرية، خلق الإنسان بإحساسه باتجاه نظره ورحابة حركاته وفاعليتها، مفردات من الصور الفاعلة انطبقت بشكل طبيعي مع أولى هندستها. «كل أفعالنا البسيطة أو العلمية تطبيق للمبادئ الهندسية». هذا ما يقوله سيمون ويل Simone Weil⁽¹⁾. والكون الذي نعيش فيه نسيج من الارتباطات الهندسية والضرورة الهندسية هي التي نخضع لها كمخلوقات محبوسة في المكان والزمان.

ولقد أجابت علوم الرياضيات أولاً عن ضرورات نفعية واحتياجات اجتماعية. أفادت في تعداد المواسم والقطعان ومسح الأرض وهندسة الأبنية وحتى في حساب الحركات السماوية التي كانت «معرفتنا بالتوقيت» وما زالت تتوقف عليها: وهذه

(1) فيلسوف فرنسي 1909 - 1943، له مؤلف «جانبية الرعاية» نشر عام 1947 يبرز صوفية المسيحية وبحته الحار عن العدالة الاجتماعية.

المفاهيم الأولية هُيئت ببطء إنطلاقاً من المعطيات الحسية بممارسة العمليات التي تستجيب للضرورات اليومية.

فهذه الهندسة الحدسية كانت مقامة غريزياً على مبدأين أساسيين: النظام والتتابع، أوضحهما لايبنيذ Leibniz فيما بعد، يمثلان شروط الأسلوب الجديد الذي أطلق عليه اسم «تحليل الموقف Analyse situs» أي الأساليب شديدة البساطة كالامتدادات والانكفاءات والمنافيات والتقاربات والتواصلات. وكل هذه الصور التي تشكل القاعدة، رأيناها في آلية فكرنا العادية التي نعبر عنها بأفعالنا وحركاتنا.

ومنذ بداية دراستنا، جهدنا في أن نبين أن الإنسان كان يعبر سمات تعبيره لأشكال الأشياء وحركات الهيئات المحيطة به ليعبر عن أفكاره دون أن يأبه أبداً بطبيعتها الجوهرية. ظاهرها وحده الذي كان ينتقل لعينه ووجهه تحولها التي كان يمكن أن تفيد في اتخاذها كمرجع أو رمز تقريبي هو ما كان يهيم منها.

انتهت الأفعال، وفقاً لدورها، إلى احتكار هذا الفعل متبوعاً بالظروف وأحرف الجر الظرفية. وهذه الفكرة الديناميكية السابقة للكلمة، رتبها علماء الرياضيات في مجموعات من التحولات. وبتصنيف الأفعال في ست وثلاثين مجموعة تتصل كل منها بحركة محددة، اقتصر عملنا على تطبيق منطق المجموعات هذا على اللغة. كانت مقامة على العلاقات المتبادلة التي تحدد الهندسة اللاكمية «الطوبولوجيا» التي لم تكن طبيعة الأشكال الخاصة معدلة فيها بالانتقالات المفروضة عليها، تماماً كإحساس المجازي المتطابق الذي يخضع لاختلاف أفعال المجموعة.

وهكذا فإن المعاني المجردة التي نعبر بها عن الدنيا تملك طبيعة مجموعة سابقة الموجود في فكرنا كما كان يقول «هوانكاريه H.Poincaré»⁽¹⁾ لا يمكننا التفكير

(1) رياضي فرنسي 1854-1912 اسمه الأول هنري له أعمال كثيرة أهمها نظرية المعادلات المميزة واستعمالها في الفيزياء الرياضية وآلية السماء. ويعتبر مؤسس «الطوبولوجيا الجبرية».

بدونها. إن هذا هو العمل الحسابي المحول إلى شكله النقي. إنه ينظم وسائل تعبيرنا لأن فكرنا إجمالي دائماً لا يميز التشاكل أو بالأحرى يستخدمه. لا يفرّد صورته التي استمدّها من أحلام اليقظة على غرار تلك الغيمة التي كان هاملت Hamlet⁽¹⁾ يراها حوتاً مرة ثم ابن عرس ثم جملاً، إنه لا يتشبّث إلا بمجموعة من الشكل نفسه، مجموعة على حالة واحدة، حركة بالمعنى نفسه مشكلاً السمة العامة التي تكون رغبتنا العابرة. ولا يمكن للغة أن تحصل على دقة أكبر من هذه الفكرة التي يُحاول الإنسان ترجمتها والتي يسهل له المبهم التعبير عنها. ومن الحركة إلى الرمز نستطيع أن نقول إذن إن آلية اللغة والإشارات والفكر تستخدم تماثلاً هندسياً لا كمياً بسيطاً.

(1) هاملت - دراما ذات خمسة فصول كتبها شيكسبير عام 1801 وهي أسطورية الفكرة.

الفصل الثاني

عالم الرموز

ليس الرمز إلا تثبيت حركة طقسية

ر. جينون R. Guénon

أولاً - ازدواجية الرموز

لاحظنا مكونات الرمزية بدءاً بالكلمات التي توجه إلى حاسة السمع والتي مورست بالتفضيل من قبل الشعوب البدوية أو الغنّامة التي كانت فعاليتها تمارس على عالم الحيوان المتحرك مثلها. ولهذا السبب نجد لغاتها غنية جداً بتعابير الحركة.

أما عن الشعوب الحضرية، المزارعين وموسي المدن، فقد استغلت بالطبع العوالم النباتية والمعدنية باستعمال رمزية من الحركات المحدودة توجه إلى النظر كالكتابة والهندسة والفنون اللدائنية فكانت الكتابة في حد ذاتها تحديداً للغة.

مع ذلك، فإن تكاملية حالات الوجود صححت ما كان خاصاً بهذه العوالم... فالبدو الذين يهيمنون في البوادي استعملوا الشعر والموسيقى الإيقاعية بصورة خاصة تبعاً لإيقاع الزمن «الموقت». أما الحضريون الثابتون طيلة الوقت فقد عكفوا بصورة خاصة على الفنون اللدائنية التي تتوقف على العدد وعلى هندسة الفراغ القبلية. وهذه الأشكال الحيزية للرمزية هي التي ستشغل اهتمامنا الآن.

معرفة بالدنيا تبعت الريادة التي كانت حساسيتنا تطبقها على الوجود الذي كانت تصر على التماثل معه. وهذا التماثل الذي كانت التقاليد القديمة تقيمه بين العالم الأصغر والعالم الأكبر، هو المفتاح الحقيقي للرمزية السمجازية التي تستخدم العوامل الطبيعية للتعبير عن المدارك الفكرية. ولهذا السبب، انعكس العالم الفكري في مرآة الأشياء المرئية إلى صور معكوسة. والكتب المقدسة القديمة كانت تعبر رمزياً عن أنسنة الكون على صورة آدم القبلاني اليهودي وآدم إنسان العالم الأول في الإسلام. كان آدم القديم رأسه بين الغيوم وقدماه على الأرض يملك العالم مع الاعتراف بعالم روعي في السماء وعالم نفساني في المنطقة المتوسطة من الفضاء الجوي وعالم جسدي شهواني على سطح الأرض. وهذا إدراك أسطوري يتصل بالهرمسية الغربية والخنثية الأولية.

وهذا المفهوم يستحق أن يُدخل في الرمزية ازدواجية تكميلية تفسر تناقضاً جوهرياً.

ذلك أن كل رمز يقبل على الأقل تفسيرين متناقضين يجب أن يجتمعا ليحصل على معنى كامل. وتساوي المتناقضين هذا ملموس على مستوى المفردات. ففي اللغة العبرية، كلمة شِت Shet (أفعى) لها معنيان متناقضان: معنى التأسيس أو البناء ومعنى التدمير وهذا ما يبرر المعنيين للشارة المبهمة⁽¹⁾. وكلمة ألتوس Altus باللاتينية تعني العالي والعميق وكلمة Sacer تعني قديساً ولعيناً. وهو ما يمكن ترجمته هندسياً بخط مستقيم اتجاهه الرأسي يحتمل اتجاهين متعاكسين من الأسفل إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأسفل وهو اعتبار يمكن أن يسهل تعريفاً لفعل الرمزية.

وما يجعلنا نتوقف في بادئ الأمر أمام هذا التعريف للتناقض ليس وجهة الحركة بل الطبيعة المختلفة التي تربطها من جانبنا بكل منها من هاتين الوجهتين، لأن كل حركة ينفذها الإنسان تُخصص بمعامل جبري مهم من الانفعال وبالتالي فإن كل منطقة

(1) شارة الطباعة: صولجان هرمس ذو الجناحين الذي تلتف حوله حيتان باتجاهين متعاكسين. و Hermès إله يوناني دليل المسافرين ورئيس الباعة واللصوص ورسول الآلهة.

من الفضاء يتحرك فيها محملة بالعدوى بالكمية نفسها من الإحساس حسب اللذة أو الخوف اللذين يثيرهما والعقبات أو التسهيلات التي تحويهما. هنا تشعب وراثي يدفعنا إلى أن نعزو قيمة مختلفة لليمين واليسار وما هو في الأعلى وما هو في الأسفل.

فإذا كان الجانب الأيمن حسب التقليد الغربي فاعلاً ومواتياً والجانب الأيسر سلبياً و«مشؤوماً»، فإن الأمر يختلف تماماً في التقليد الصيني القديم الذي كانت اليد اليمنى فيه «Yin» أي مؤنثة لأنها تحمل الأطعمة إلى الفم وهو عمل سفلي، بينما اليد اليسرى «Yang» باعتبارها لا تعمل.

والإنسان ذو الجانبين الذي تعتبر مشيئته تأرجحاً موزوناً، يقسم العالم بهذا الشكل إلى جزأين متناقضين ولكنهما متكاملان يعكسان عدم التماثل الغامض للعقل بقدر ما هو تشريحي وفعال ما دام النصف الأيسر يحوي منطقة النطق بينما يتحكم النصف الأيمن بالفعل الصامت لفكرة بإشارة أو صورة أو صوت.

وفي العرض الاستعادي للنوع، يعود هذا التركيز إلى ما قبل ظهور المملكة الحيوانية ما دام مشهوداً في الخلية الحية، ولولا هذا اللاتماثل الجوهري ما كانت الحياة لتقوم كما لاحظ ذلك «باستور⁽¹⁾ Pasteur» ما دام سر ظهورها قائماً في التوازن بين قوتين متقابلتين.

وعلماء النفس التقنيون والمتخصصون في علم الخطاطة واختبار طاقات الإنسان يقبلون المعنى الفيزيائي المختلف لإتجاهات الفضاء. ويثير الملاحظة بشدة أن يكونوا قد توصلوا إلى الروابط نفسها التي ترشد إليها التقاليد القديمة رغم أنه من الممكن ظهورها أحياناً على شكل منقوص جداً عندما يطبقونها في دائرة اختصاصهم.

(1) لويس باستور كيميائي فرنسي 1822-1895 له أعمال رائعة في الكيمياء المجسمة «ستيريوشيمي»، اتجه بعد ذلك إلى دراسة التخصيب وتبحث مؤلفاته في نظريات علمية كونية ونفسية مختلفة.

وبالنسبة إلى الخطاطين، يمكن اعتبار سطح ورقة أفقي تصميمًا تعرض فيه صورة إنسان كان قد خط عليها بضعة أسطر. يمكنهم أن يتعرفوا فيها إلى المناطق الكلاسيكية الثلاث التي تتوالى من الأعلى إلى الأسفل: الفكرية والنفسية والجسدية.

وفي وسط المنطقة الوسطى يقوم بالتأكيد المركز الموحد للحياة الداخلية، سريرة الأنا، وفي المنطقة العليا تقوم سلطة الفكر التأملي إلى اليسار بينما العقلانية الفعالة تقوم إلى اليمين. وفي الجزء الأسفل، يُعزى الجانب الأيسر إلى مشاعر الإخضاع الاجتماعي والأيمن إلى اندفاعات المبادرة والحرية.

ومن جهة أخرى إذا كنا نفصل بخط عمودي الجزء الأوسط إلى نصفين، فإن الجزء الأيسر الذي يحكمه الدماغ الأيمن يبدو مكرّساً للماضي والجزء الأيمن الذي يحكم الدماغ الأيسر للمستقبل. ومن المثير للملاحظة أن سمعة الجانب الأيسر السيئة يمكن تفسيرها اختبارياً. إنها تعود إلى عاقبة الولادة التي يبدو الجانب الأيسر من المضغة الجنينية أكثر تعرضاً لها بسبب الموضع القائم في وسط الرحم.

ومن الطبيعي أن تتوجه كل حركة منطلقة من المركز «الوسط» نحو اليمين إلى ظاهرة خارجية في حين تلجأ في اليسار إلى الداخلية. ويمكن القول إن اليسار يضم الجانب الوراثي والقابل للعدوى، وهو الجانب الاجتماعي والامتثالي للشخص بينما يظهر الجانب الأيمن أصالته الخلاقة وإرادة التوسع. وكل حركة تتعقلن أو تزوحن بصعودها إلى أعلى بينما تتحدّى بهبوطها إلى الأسفل «تصبح مادية».

ويمكن الاعتراض على هذه السَّيِّئمة الطبيعية بأنها لا تنطبق على الكتابة باللغات الغربية التي تُخطّ إجبارياً من اليسار إلى اليمين. لا بأس ولا اعتراض إذ من الممكن فحص عُرف أو تقليد بطريقة كتابته. فالشعوب السامية من يهود وعرب الذين يكتبون من اليمين إلى اليسار يفضحون كذلك عودة سلفية دائمة وإخلاصاً خارقاً لطبيعة عرقهم ووحدتهم المميزة التي تصل إلى حد التعصب.

وبينما الشعوب، كالصينيين، الذين يكتبون من اليمين إلى اليسار ولكن من الأعلى إلى الأسفل يسيطرون على ما يمكن أن تحويه طبيعتهم من خواص متميزة، بإخلاصهم لها وبعودة دورية إلى روحيتهم البدئية وإلى نزعة إيجابية تضم أهمية أكثر للنتيجة مما يحققه الأسلوب المتبع للوصول إليها، لا يمكن القول إن هذا التحليل يناقض بيئة سيكولوجية الأعراق.

ومن هذا العرض نستخلص أن الحيز الأسطوري يبدو وكأنه يلعب دوراً موجهاً حيال إدراكنا الحسي وتفكيرنا المجيد. والمفاهيم حول الأعلى و الأسفل والأيمن والأيسر كانت قبل، اختبارها المادي، مسجلة في فراغ داخلي موصوف منذ نشأته بإظهار الفضاء الخارجي وبافتراضيتنا. وهذه هي مداركنا المختلفة التقليدية عن هذا البيان وسنعود إلى دراستها من خلال مزيتها من السماء إلى الأرض.

ثانياً - عالم السماء

كان الإنسان الأول يقدر أهمية الخصم أو العارض الذي يصادفه حسب ضخامته التي يرى فيها مثلنا علامة قوة ما. وإزاء إفراط الطبيعة الهائل اضطر إلى أن يعتبر نفسه مجرداً إزاءها حتى درجة إظهار الخوف والاحترام، لا شيء كان يبدو له قادراً على تجاوز سمو السماء الرهيب المستقر الذي لا يمكن الوصول إليه والذي كان تهديده يختبئ وراء ستار من الغيوم الداكنة ويظهر من خلال العواصف التي كانت تنطرح عليه فجأة برعد وبرق.

ومن الطبيعي أن يكون الإنسان الأول قد افترض أن هناك وراء هذه القبة المرصعة بالنجوم تسود سلطة متقلبة الأطوار اكتفى بتسميتها «الشديد العلو» لأنها كانت دائماً غير مرئية لهم. وهذه السلطة الخفية كانت على قدر من السرية بحيث تحول نفسها إلى نور وضاء يعلن كل صباح ظهور الشمس.

ونصف الكرة السماوية التي كانت تهيمن على الأوائل من بني الإنسان كانت تشبه بقبة أو سلة نصف كروية مقلوبة أو قنطرة محفورة فوق الأرض أو غطاء قدر

ثقل يغطيهم ويحميهم في الوقت نفسه كما يوحي بذلك اسم «أورانوس»⁽¹⁾ «Ouranos» وأسطورته، بل وحتى عند الشعوب التي توصف بالمتحضرة، مثلت السماء على سبيل المثال بالمظلة الذهبية التي تحمي بوذا وبالمظلة الكبيرة لدى ملوك المشرق وبحمامة الروح القدس التي تظلل العالم بجناحيها المنبسطين على شكل قبة بل حتى بالمظلة المنشورة فوق البابا الجديد بعد انتخابه من قبل مجمع الكرادلة.

والعجز الذي كان يُضعف ساكن الأرض المسكين ويقعده عن الارتفاع فوق سطح الأرض جعله يتخيل إعجاباً موقراً حيال الجنس المجنح القادر على الطيران بحرية والوصول إلى موطن الآلهة بل وأن يفاجئ الحضور الآلهي. لذا اعتبرت الطيور رسل الآلهة وكل ظواهر قدرة الرب أعارتها الأجنحة. فالطيور والأجنحة والطيوان رمزت كلها إلى الحالات السامية للوجود.

والريش الذي يلف رأس كبار رؤساء الهنود الأمريكيين يدل على سلطتهم الروحية. والأجنحة التي يربطها هيرميس Hermes⁽²⁾ رسول الآلهة بعقبه تحرره من الجاذبية كحالة أقدام القديسين البوذيين الخفيفة الذين يستطيعون تحويل مشيتهم إلى طيران. وكذلك مشية الخالدين من الطاويين Taoïstes الذين يستطيعون الوصول بها إلى جزر السعداء. وهذا الطيران الذهولي وهذا الارتقاء الروحي، حصل عليه بعض الرجال المختارين بامتياز خلال نومهم كمحمد وفيتاغور Pythagore⁽³⁾.

وعلاقة الطيور بالسماء أتاحت تشبيهها بالملائكة وبأن تُعزى إليها اللغة الملائكية أو «الشمسية» التي هي الشعر بشكل خاص، وهي لغة إيقاعية تسهل بلوغ المراحل العليا، لأن «الذكاء كما يقول ريج-فيدا Rig-Veda أسرع من الطير» والكلمة، الانبثاق غير المرئي للفكر، مجنحة هي أيضاً.

(1) أورانوس، إله يوناني يشخص السماء ويلعب دوراً كبيراً في نسب الآلهة لهيزود Hésiode والتيار المديني اليوناني القديم المتصل بأورفيه Orphée سيد التعزيم والسحر.

(2) هيرمس إله يوناني.

(3) فيتاغور فيلسوف ورياضي يوناني 570-480 ق.م.

و«لغة الطيور» تعبير قرآني يدل على المعرفة السامية. والأبطال الذين انتصروا على التنين، هذا الوحش شاذ الخلقة الذي يمثل القوى الدونية، احتلوا الخلود الفرضي وفهموا لغة الطيور. وهذا ما وقع لسيجورد Sigurd⁽¹⁾ في الأسطورة الشمالية وللقديس متى الذي يصغي إلى حمامة الروح القدس التي وقعت على كتفه ثملي عليه بيانات انجيله كما نرى ذلك منحوتاً على أروقة الكاتدرائيات. وملك البشارة الذي جاء بحبي العذراء على رافدة المذابح البدائية كان مرفقاً بحمامة هي ذاته بشكل آخر لأن سلامه هو مجنح أيضاً، (سلام = ave وطير = avis). كتب المفكر الإيراني فريد الدين العطار قصيدة من خمسة آلاف بيت عنوانها «لغة الطيور» تبين بأوضح شكل الروحية الصوفية.

والنحلة المجنحة هي الأخرى، واسمها بالعبرية «دبورا deborah»، وهو مشتق من الجذر نفسه لكلمة (دبر dbr)، كانت تعتبر أحياناً كقطرة من النور ساقطة من الشمس عند الفجر. ولقد وضعت على شفاه أفلاطون وبندار Pindare وهما نائمان غسل الإلهام الشعري ولغة الملائكة. ثم إن العسل أساس نبيذ العسل، غذاء الخلود. وبعودة النحلة إلى الظهور من خليتها بعد سباتها الشتوي، تصبح رمز البعث المساري.

وإذ يخترق الغيوم شعاع الشمس الممثل السامي للروحية السماوية التي تظهر القلب المحرق في الوسط والنظر الثاقب في السم.

والرمز الشمسي كان يعتمد منذ البدء كل أصحاب النفوذ الآسيويين الذين استعاروا منه تيجانهم الضوئية التي تشبه الذهب والحجارة الكريمة التي تقلد أشعتها. والقديسون أخذوا هالتهم والرياضيون الفائزون في الألعاب إكليهم من الغار رمز الخلود. وأطراف هذه التيجان القديمة تمثل الشعاعات الشمسية كقرون الكبش، الحيوان

(1) بطل أسطوري اسكندنافي، أحد شخصيات «إيدا edda» ويعتبر «السيجفريد الاسماني Siegfried».

الشمس. والقرن، رمز الطاقة وشعاع مرئي للقوة الخالقة، كان يزين جبين موسى وهو ما احترمه ميشل آنج Michel-Ange⁽¹⁾ في تمثاله الشهير.

وكانت عبادة الشمس عالمية. كانت معبودة في مصر باسم أوزيريس وباسم «بَعْل Baal» في البلاد الكلدانية وميترا في بلاد فارس وهيليوس Hélios في رودس ثم أصبحت أبولون Apollon عند وصولها من أقصى الشمال إلى اليونان قبل أن تُعبد في روما. كانت تمثل العقل الكوني الذي يضيء وبالتالي يسود الأسرار الخفية. وكان لهذه الأسرار الخفية مكانة في معبد دلفيس Delphes الذي كان اسمه مشتقاً من «دوفين-الدلفين» سمكة الإله أبولون. وخلال الأشهر الستة التي كانت الشمس تنحرف فيها في الليل القطبي كان وسيطها يبقى صامتاً. وكانوا يحتفلون بعودتها في مطلع الأيام المشمسة. وانتهى الأمر بأبولون الشمسي، الأخ التوأم لأرتميس-ديانا، التي ولدت قبله لأن الليل المقمر يسبق النهار، إلى التمتع بالقدرة شبه الكلية: فهو رباني، طبيب، راع، موسيقي، رامي سهام. كان يستطيع بواحد من أسهمه أن يقتل أو يشفي.

وهناك إلهات أخرى: آتيس Attis وسييل Cybèle لبستا التاج ذا الطبقات الثلاث كدليل على هيمنتها على درجات الكون الثلاث، وهو تاج سام يستطيع البابا وحده الاعتزاز به رغم أنه أقلع عن وضعه.

والحيوانات الممثلة الدائمة لفرعها شمسية هي الأخرى كالنسر ملك الأجواء والأسد ملك الصحراء اللذين يجسدان السمو والشجاعة والعدالة. فالنسر الذي يمكن لنظره أن يحرق بالشمس دون ضرر قادر على استقبال النور الموحى بشكل مباشر. والنسر المقدس في الهند جارودا Garuda اللامع كالنار كان مطية فيشنو Vishnou يجسد حالة سامية من الروحية.

والإوز العراقي طائر شمسي آخر كان يصحب الإله أبولون في رحلاته الشتوية إلى الشمال الأقصى ويربط بذلك الأصقاع الشمالية بالمتوسطة. «ونشيد الإوز»

(1) نحّات ورسام ومهندس وشاعر إيطالي 1475-1564 لم يكن له مثيل في أعماله الناطقة والآثار التي خلفها موضع اهتمام العالم حتى اليوم.

الشهير هو شكل من «لغة الطيور» وهو اشتقاقياً مماثل للكلام. والإوزة همسا «Hamsa» في الهند هي مطية براهيم وفارونا Varuna وهي تبيض «بيضة الدنيا» - براهيمندا - على المياه الأولية.

وطائر شمسي آخر، العنقاء، وهو اسم يوناني للبَنُو المصري «bennou» ممثل بمالك حزين أرجواني. وهذا الطائر الأسطوري كان مفروضاً أنه يعود إلى الحياة من رماده وكان يرمز إلى البعث.

والرمزية الشمسية للأسد معروفة جداً بحيث لا تستوجب العودة إلى بحثها. ولما كانت إحدى الخصائص الملكية العدل، فمن الطبيعي أن تكون عروش الملوك في العصر الوسيط مزينة بأسود وأن تكون العدالة الكنسية قائمة بين أسود الحجر التي كانت تحيط بالباب الكبير لبعض الكنائس. وما يثير الفضول بشكل أكبر هو رؤية الذئب مشاركاً لأبولون الليقي (نسبة إلى ليقيا = مقاطعة في تركيا) lycien بفعل تلاعب بالكلمات بين «لوكوس - lukos - الذئب» و«لوك - luke» النور، فكان الذئب يعتبر جيد الرؤية ليلاً.

ثالثاً - مركز العالم ومحوره

إن فكرة المركز الذي ترمز إليه الشمس هي نقطة الانطلاق لتوليف مذهبي يجب تقريبها من فكرة المجموعة التي انتهينا من تعريفها في الجزء الأول. وفكرة المركز هذه هي في الواقع فكرة مجموعة من المواقف المأخوذة من امتدادها الشامل وهو ما يفترض تطابق المتناقضات وتوازن المضادات - والتناقض نفسه ليس إلا أصغر المجموعات الممكنة المحولة إلى ثنائية اثنين متكاملين.

وتمثيل المركز هندسياً هو النقطة الوسطى التي أحدثت الدائرة. وتمثيلها الجغرافي في مختلف التقاليد يعزو إليها مشاهد مذكّرة: أرض مقدسة، أرض الخلود، أرض نقية، أرض السعداء، أرض الأحياء، القصر المقدس، القصر الداخلي، إقامة

المفضلين... إنه الوسط الثابت للصينيين، ثقب الدولاب الكوني، معبد الروح القدس. ويمكن أن يكون بستاناً كالجنة أو مدينة كالقدس السماوية أو كهفاً كالأجارتا Agarttha أو جزيرة كالأطلنطيد، أو جبلاً كـ: «ميرو Mérou» أو سرّة حجرية ترمز إلى الأرض، ولهذا السبب تكون جنة الأرض مربعة.

وفي التقليد الإسلامي، العرش الرباني دائرة يدور حولها محمد عند إسرائه ليلاً. وفي الهند، عرش فيشنو Vishnou زهرة لوتس نجمية الشكل. وهذا الرمز يقيم عرش الأمراء فوق الأرض وإذا كان الملوك في الشرق الأقصى يحملون على الأكتاف على غرار ملوك الفرنجة الذين كانوا يحملون على الترس الكبير أو الباباوات حتى الآن على ما يسمى «سيديا جستاتوريا sedia gestatoria» فما ذلك إلا لأنهم أصبحوا شخصيات شبه ربانية يجب ألا يلمسوا الأرض. وهذا ما يحدث أحياناً للأبطال الحاليين الذين يحملون بفخار بسبب الحماسة الشعبية دون أن يكون أصل هذا التقليد معروفاً من قبل الذين يمارسونه.

وإذا كانت الأرض قد وُصفت بالمربع فما ذلك إلا لأن الشمس تحدد المدارات بفضل النقاط البعيدة خلال مسيرتها الأمر الذي يقسمها إلى أربعة أجزاء كل جزء يمثل فصلاً كما يمثل في الوقت ذاته واحدة من الجهات الأربع.

والمندالا التنترية⁽¹⁾ Mandala مثلاً التي تقوم على مظهر التأمل في ظاهرة الصور الهندسية المؤلفة من دوائر ومربعات متراكزة تجمع بهذه الطريقة السماء والأرض أي الوجود الكامل كله. ومن جهة أخرى هناك سحر احتفالي، رسم دائرة أساسية تقيم حداً للحماية من التأثيرات المشؤومة. وكذلك رقصة الدراويش الدائرية هي طريقة للتجلي الروحي.

(1) مجموعة من العقائد والمذاهب تعود إلى الهندوكية واليانية jaïnisme والبوذية وهدفها معرفة قوانين الطبيعة الخفية وهذا مذهب الباطنية. واليانية إحدى الديانات الهندية التي تركز على تطهير النفس باللاعنف...

والخطّان المتعامدان اللذان ترسمهما قطراً دائرة أو محورا مربع ما يشكلان صليباً وهو الرمز الهندسي الأكثر عمومية. ففي كل التقاليد يمثل الصليب الإنسان العالمي الذي يتماثل مع آدم القدمون ومع التخنت الأولي.

وفي المستوى الأفقي، يمثل هذا الصليب تمدد الإنسان في كل اتجاهات كيانه. إنه يربط الدرجات التصاعدية على المستوى العمودي للحالات العليا التي يمكن أن يهفو إليها. والمحور الأوسط الذي يجمع هذه الحالات من السماء إلى الأرض، ممثل بكثير من الرموز: الشجرة، الجبل، الرمح، العمود، العصا، صارى الحلوى، الركيزة العالمية، السلم، الدرج، المسلة، قبة الجرس، السهم، العضو التناسلي، رمز الخصب، الهرم، النصب، الحبل، السلسلة، الخيط... ولقد ذكرنا طوعياً هذه اللائحة الطويلة لنوضح من جديد فكرة المجموعة التي توحى بها وفي الوقت نفسه الحركة الوحيدة التي تجمعها وتبينها على طول محور تصوري يمكن اجتيازه على وجهتيه المتقابلتين.

فالجبل يرمز معاً إلى المركز والمحور العالميين. وهناك على أي حال في كل صعود لون من التطهير الطبيعي والروحية العضوية كان «Nietzsche نيتشه» فيما اعتقد يبحث عنها بممارسة تسلق جبال الآلب في سيلزماريا ودومال Daumal بخلقه «جبله المضارع». الأماكن العالية كانت المراحل الأولى للارتقاء إلى القمم كما تدل على ذلك حادثة موسى التوراتية عندما تلقى ألواح الشريعة على جبل سيناء. ولما كان لكل بلد مركزه الخاص فإن اسم الجبال المقدسة يختلف حسب التقليد مع استجابته دائماً لفعل مطابق. إنها «أولمب Olympe» بالنسبة إلى اليونانيين، البرج Alborj بالنسبة إلى الإيرانيين وطابور Thabor لليهود وقاف Qaf للمسلمين وبوتالا Potala لأهل التبت، الجبل الأبيض للسُّلُتْ أو السلتيين، الميرو Mérou للهندوك، الكون لون K'ouen-louen للصينيين. ويمكن القول إن في صلب كل قرية، يستجيب برج الأجراس وبرج الحصار والبرج الرئيسي للحاجة نفسها إلى الحماية الإلهية.

وعندما لم يكن للجبل وجود كان يُمثّل بإقامة كتلة من الحجار أو ركمة تراب أو بناء مخروطي أو هرم أو الزيقورات في بابل Ziggourat⁽¹⁾ أو معبد ديني جبلي في بلاد

(1) الزيقورة البابلية بناء من عدة طوابق في بلاد ما بين النهرين.

الخَمير Khmer⁽¹⁾ أو باغور بوذي من تسعة طوابق في الصين. والحجارة المبنية، سواء كانت أنصباً أو أعمدة بارتفاع عشرين متراً Menhirs: هي متعلقات الإيحاء الإلهي كالأومفالوس⁽²⁾ الدلفي الذي كانت بيتي Pythie تكهن عنده.

وأكثر الروايات انتشاراً عن المركز المحوري هي الشجرة التي كانت الحضارات قبل الهيلينية تقدسها. إنها شجرة البلوط في بلاد الغال واليزفون في جرمانيا والدردار في سكنديناويا والسندر في سيبيريا والزيتون في الإسلام والتين البنغالي في الهند والخيزران في اليابان. وإن ننسَ لا ننسَ شجرة السنط الماسوني واللوز العبري والصفصاف الصيني وغار أبولون ودبق للكهان الغاليين التي كانت مسلمات أكثر جدة.

فالشجرة الكونية المغروسة في منتصف الوجود أو في مكان تشغله كالعمود القرباني في الهند، تربط الأرض بالسماء. وعمودية الشجرة وخضرتها الدائمة أو المتجددة على المستويات الثلاثة: الجذور، والجذع والأوراق تجمع في علاقة العوالم: السماوي والهوائي والعاصفي. ونسغها وهو نوع من الندى من الأسفل وثمارها، تفاح الـ «هيسبيريد»⁽³⁾ Hespérides أو جنة عدن، هي غذاء الخلود. وكما يقول دانتي Dante⁽⁴⁾ «الشجرة تعيش من قمتها» هو ما يترجم الصورة الباطنية للشجرة مقلوبة، جذورها هي الأوراق والأوراق هي الجذور وبذلك يمكنها أن تتغذى من ندى السماء.

(1) الخمير شعب كمبودي من الهند الصينية على خليج تايلند يتكلم بلغة خاصة به ومذهبه باطني أيضاً.

(2) Omphalos، نسبة إلى أومغال ملكة ليديا التي كان هرقل أسيراً عندها بعض الوقت تصوره الأسطورة يغزل الصوف عند قدميها: ودلف معبد لأبولون في اليونان القديمة على السفح الجنوبي الغربي لبرناسيا.

(3) جزيرة أسطورية من جزر المحيط الأطلسي مخصصة لعصافير الكنتاري الصفراء.

(4) الاسم الكامل: دانتي أليغييري Alighieri، وهو كاتب إيطالي 1265-1321، لعب دوراً أساسياً في مدينته التي كلفته مهام سياسية عديدة؛ له مؤلفات لغوية وعلمية وله الكوميديا الإلهية.

والموضوع الشجري الأكثر أهمية هو عن شجرة الحياة التي هي في الفن الإيراني محصنة غالباً بطاووسين متواجهين يمثلان الازدواجية الكونية. وينبوع، رمز عودة الشباب الأيدي، يروي أحياناً «قدم» الشجرة ويطفح بالانقسام إلى أربعة أنهار جارية في اتجاهات المدى الأربعة. وفي التوراة، استبدل الطاووسان بأشجار معرفة الخير والشر التي تُحصّن شجرة الحياة، وهي ثلاثية معادلتها القبلانية «التوراتيه» الشجرة ذات الثلاث نافورات.

وفي بناء الصروح، عندما تأخر الحجر في احتلال مكان الخشب أصبح عمود الحجر «المسلة» المصقول الرمز المحوري. وسلة الأوراق المنحوتة التي تحيط بتاج العمود بصورة عامة مشتقة من الرباط النباتي القديم الذي يجمع تفتح الجذوع الزهري بحزمة واحدة.

والسُّلم صورة أخرى للمحور كالدرج. ونحن نعرف بهذا الصدد سلم يعقوب الذي كانت الملائكة تصعد وتهبط عليه. وهذا السلم الأسطوري الذي تحدد درجاته مراحل التطور الروحي، موجود في البوذية وكان قد أورد كذلك في «كتاب الأموات» المصري. والحبل رمز آخر قديم جداً للصعود. ومعه يتدخل مفهوم مختلف أكثر تعقيداً للمحور هو مفهوم العقد التي تتصل بمختلف درجات السلم والذي ينطبق على تثبيت حالة مقبولة أم لا. وفي العصور القديمة وكذلك في الإسلام، اعتبرت الزخرفة على شكل عقدي وجديلي وحلزوني أو تشبيكي تعويذات حافظة وواقية. ومن الممكن مع ذلك ثقب هذه العقد بخبرة تعتبر واحداً من طقوس اليوجا. وبالفعل، حلّ عقدة هو البدء في تحرير يجب أن يتم في الاتجاه العكسي المؤكد للإتجاه الذي أجري به. وهذا من الناحية الاشتقاقية «الحلّ» الوحيد الحقيقي الذي يقوم على أساس اجتياز حلقة العقدة الجارية دون أن تكون محصورة. وإذا كان الإسكندر قد قطع بضربة سيف «عقدة جوردياس» الشهيرة، التي كانت تربط نير السمقرن بعربة جوردياس Gordias، ذلك الحراث القديم الذي أصبح ملكاً على «فريجيا Phrygie»⁽¹⁾

(1) فريجيا - منطقة في غربي آسيا الصغرى تفصلها عن بحر إيجه «ليديا Lydie» غزاها السومريون في القرن السابع قبل الميلاد.

فإن هذا الانتصار المزعوم للبطل المقدوني من طبقة الفرسان عجل بنهايته. ذلك أنه وإن غزا آسيا واحتلها فقد خسرها على الفور ليموت في طريق عودته.

ومن كل رموز المحور، العصا هي الأكثر عمومية والأكثر ثراء في النسب. ومن عصا الراعي المعقوفة إلى عصا الحاج فعصا السمارشال فإنها تفعم بالسلطة والجدارة. إنها عكاز الأسقف، سوط النبيل الروسي، مضرب الفارس، عصا المتغندر، عود المشعوذ إضافة إلى أنها عصا الممكنة للساحرة القروسطية إذا أدخلنا هنا مفهوم التطابق.

ثم إنها العصا البراهمانية ذات العقفتين التي تذكرنا بشارة الطبابة لدى هرمس Hermès التي تلتف حولها باتجاهين متناقضين حيثان تمثلان التوازن المستقطب للاتجاهين الكونيين.

والصولجان، الخاصية الملكية، هو تعريف آخر للعصا ورمز للمحور كما هو الملك نفسه باعتباره الوسيط بين السماء وشعبه. ومهامه الرئيسية تفرض عليه إقامة السلام والعدل الممثلين بعارضة الميزان. وسهم هذه، كالسيف، رمز للمحور.

السهم وحده رمز محوري آخر يفترض الفرجة أو الفتح في منفذ حيث يمكن للنوران يدخل منه وبالتالي الفكرة. وهكذا يبدو كعامل نهائي لصورة برج القوس⁽¹⁾ المؤلف من ثلاثة أسس جوهريّة: الحصان، الإنسان والسهم وهي تشكل بوضوح التعاقب في غزو الحالات الثلاث.

والخيوط رمز مجاور للجل ولكن بشكل أكثر تعقيداً لأنه يستعمل في النسيج، وهو يمثل في الأزمان السالفة تركيب الكون. مغزل ومردن يلتف حولهما الخيط وينفلت. وهذا يمثل إمارات المصير القائمة بين أيدي الإلهات الكبيرات الموارد أو البارك Moires ou les Barques اللواتي كن يعملن وهنّ يغنين كجنيات البحر. وأقدم

(1) SAGITTAIRE مجموعة نجوم برجية يرتبط اتجاهها بمركز المجرة وهي المجموعة التاسعة التي تبتعد الشمس عنها في الشتاء. لكن المؤلف أراد بها التعبير عن طقس ديني قديم، رامي السهم من على صهوة جواد.

تلك الآلهة هي لاشيزيس Lachesis التي كانت تغزل لكن الخيط الذي بين يديها هو خيط الماضي. والإلهة الأصغر منها كلوتو Clotho تلف خيط الحاضر. وأصغر الأسرة، آتروبوس Atropos تستعمل المقص المحتوم الذي يقوم بقطع الخيط في المستقبل. وكان هيزيود Hésiode يعطيهم «الليل» كأَمَ لهم وأفلاطون الضرورة. وهذا الثلاث المقدس الرهيب كان معتبراً كشؤم. ولعل هذا يفسر كيف أن النسيج الشعائري في بعض أسرار الجماعات القديمة كان بين النساء مقارناً بإنزواء الليل وبالشقاء بينما العمل في الحقول المنفذ خلال النهار وفي الصيف موقوف على الرجال.

وخيط السلسلة، العامل المستقر، يجمع الأكوان والحالات بينما خيط اللحمة الدائم الحركة، يبرز المصير المشروط لكل إنسان.

وحركة الملوك في الذهاب والعودة تمثل التعاقب بين الحياة والموت لدى الطاويين⁽¹⁾ والشهيق والزفير الذي يمثل لدى الريغ - فيدا الايقاع الحياتي «Rig-Veda»، ولدى الأوبانيشادين، يمثل الخيط الآتما Atma الذات» و«برانا Prana» النفس. وعقد اللؤلؤ المنضد هو حلقة العوالم المتصلة بالذات. والخيط الذي يلتف حول دولااب المغزل يذكر بالعجلة وحركتها الديناميكية. والدولااب هو رمز للعالم على غرار صور أخرى زهرية أو مستديرة كالوردة وزهرة اللوتس التي سنلقاها فيما بعد والتي يمثل تفتحها تطور التجلي.

لكن العجلة ترمز كذلك إلى خلق الصيرورة الاحتمالية والبائدة ودورة التجدد الدائمة. «العالم عجلة في عجلة» هكذا قال الكردينال «كوزا Cusa»، «كُرة في كُرة».

والعجلة في وسطها ومحورها رمز شمسي كذلك أي مركزي. فهي تنشط بالشكرافارتي الهندوكي الذي يحرك العجلة وهو سيد المكان والزمان. وفي حين أن

(1) فلسفة دينية تنسب إلى الصيني «لاوتسو» في القرن السادس قبل الميلاد معروفة باسم Taoïsme وأنصارها Taoistes الطاويون.

القرص العادي هو خاصة «فيشنو Vishnou» فإن عجلة العربة، الخاصة الشمسية لها 8، 12، أو 30 شعاعاً، ثقبها مركز ثابت وهي كذلك ما تُسمى روتا-موندي Rota-Mondi لأصحاب مذهب الصليب الوردى. والذي يقيم في المركز ويجعل العجلة تدور، حسب المنظوريات، الإنسان العالمى أو الملك وبوذا نفسه بالنسبة إلى البوذيين وهو الذي يسيّر دولاب القانون الذي يمكن تقريبه من «دولاب الحظ» في الغرب.

رابعاً - الوسطاء البدائية:

النار، الهواء، الماء

هذه العوامل الثلاثة ترمز إلى التأثيرات التي تتلقاها الأرض من نار السماء على شكل ضوء وحرارة في حين أن الريح والمطر يعودان إلى الفراغ المتوسط.

الضوء هو الظاهرة المرئية للعالم اللاشكلى وهو يرافق كل الظواهر. ووفقاً للقبلاية اليهودية، أشعة الضوء خلقت الامتداد كموجة منظمة للخواءات وهو ما يوضحه التكون مع ما يسمى فيات لو كس الألهي - أي ليكون نور - الذي أعلن في بداية إنجيل القديس يوحنا بأنه الفعل.

وهذا النظام الرباني الذي يفصل النور عن الظل المختلطين أصلاً يظهر القدرة الخلاقة المنحبة قبل ذلك في ليل المجهول. وضوء الشمس يتطابق على هذا النحو مع الفكر وضياؤه مع المعرفة المباشرة في حين أن ضوء القمر ليس إلا جذريّ وانعكاسي.

واستناداً إلى ما يقوله الصوفيون، يشبه قلب الإنسان فانوساً من الزجاج فيه ضميره الأكثر سرية على شكل مصباح يُضيئه نور الفكر. والرمزية الرومانية شهرت هذا الإشراق الداخلي في لوحات الكنائس بتمثال للمسيح جالس في لب لوزة أو في هالة تشع من حولها خطوط ضوئية. وهذا ما قد يمكن تقريبه من التقليد العبري الذي

يسمى لوز Iuz نواة الخلود هذه التي ترجمتها الأسطورية اليونانية بمخلق أسطورة «Atys آتيس» الذي ولد من عذراء حملت به بدءاً من حبة لوز. والإزهار الباكر لشجرة اللوز الذي خلّق من قذف عضو «زيوس Zeus» يعلن عودة الحياة ربيعاً للطبيعة.

وهالة اللوزة «المندورل Mandorle» هذه تشبه أحياناً بقوس قزح، هذا الجسر الضوئي الذي يربط الأرض بالسماء والسماء بالأرض والذي يسر مرور العالم المحسوس إلى العالم فوق الطبيعي. وقوس قزح هذا هو السلم ذو السبعة ألوان الذي كان بوذا المدعو أحياناً «الجسر العظيم» قد هبط عليه إلى الأرض.

وفي اليونان، قوس قزح هو وشاح «إيريس» رسالة الآلهة. وهو في الهند قوس «اندرا Indra» الذي يطلق به سهامه من المطر أو النار. وإذا كان الأباطرة الرومانيون والباباوات قد سمّوا «الأحبار Pontifes»⁽¹⁾ فما ذلك إلا لأنهم كانوا يوزعون الجسور الوسيطة بين السماء والأرض.

وقوس قزح يرمز أيضاً إلى اختيارات الاحتمالات التحررية الماثلة على ممر فوق جسر ضيق ومربع محوّل إلى خط أرفع من الشعرة وأكثر حدة من السيف وصف به الإسلام الصراط الذي يمهّد الوصول إلى الجنة.

وشعار النار مشتق من الطبيعة الروحية للضوء ويعود إلى ما قبل التاريخ ورمزيته متعددة التكافؤ. ولكي نخيط بتماسكه في تعدده، يمكننا أن نعرض كمثال الآلهة الهندوكية التي تمثل عدة مظاهر منها: «أجني Agni» الذي هو إنارة الفكر و«إندرا Indra» الذي يطلق سهام صاعقته وقدرته و«سوريا Surya» الشمس التي تدفئ العالم. لكن «أجني» من جانبه ليس الفكر الذي يضيء فحسب بل هو الإرادة التي تجذب كذلك والمحارب الصارم الذي يدمر. إنه مولّد ومطهر ومدمر في آن واحد.

(1) الكلمة بالفرنسية مشتقة كما هو واضح من كلمة Pont ومعناها «جسر» لذا جاء الربط بينها وبين سلطات الأباطرة والباباوات.

والنار المطهرة المقامة على مذبح الضحايا صبحت دائماً التقاليد والتحكيمات الإلهية. وهي التي أعطت الملائكة الساروفيم اسمهم الذي يعني «المتوهجين» أو المتأججين. وهي التي في يوم عيد العنصرة هبطت على رأس المبشرين والرسل بالسنة من النار وهي التي رفعت إيليا Elie إلى السماء في عربة من النيران اللاهبة.

وصاعقة النار السماوية يرمز إليها بالفأس الحجرية ذات الشفرتين لباراشو-راما Parashou-Rama⁽¹⁾. والحجر شهابي نيزكي. وهي مطرقة «ثور Thor» السكندينا في و «فاجرا Vajra» «شيفا Shiva»⁽²⁾ و «إندرا» وهما مزيج من الصاعقة والماس، والسهم الذهبي لأبولون الشمال الأقصى وسيف القديس ميشيل وثلاثي الأسنان للإله نبتون Neptune الذي كان سلاح شيفا في الهند والذي كانت أسنانه الثلاث تمثل التوقيت الثلاثي: الماضي والحاضر والمستقبل والمستويات الثلاث للظاهرة الكونية التي أصبحت حلقة الهندوسية الثلاثية.

وفي بلاد الإسلام، خلال التبشير، كان الخطيب يحمل سيفاً من الخشب كرمز لقوة الكلمة وسيفاً ذا حدين يرمز إلى «الفعل» يخرج من فم يهوى كما ظهر في بعض الزخارف الرومانية.

وفي التبت، تمثل «الفاجرا vajra» الصاعقة رمز ظاهرة السماء الفاعلة كما يُمثل بجلجل بشكل مخالف للعقيدة. وهو ما تعبر عنه الصيغة اللاتينية لكل مُسارة المعرفة التي تحصلت بالعقل والبيزر.

والحرارة التي تصدرها النار أصبحت بمقابلتها للمادة لهيباً روحياً لكل تجربة وطبقت من قبل الكيميائيين الطاويين في عمق الإنسان الداخلي في وسط قلبه وموضعه تشريحياً في الضفيرة العصبية المسماة بحق الشمسية. وكما أن وظيفة النار هي نقل كل

(1) راما في الميثولوجيا الهندوكية هو تجسيد الإله فيشنو وبطل «رامايانا» الأسطوري.

(2) شيفا هو الرب الثالث للهند وهو إله التدمير و«فاجرا» هي أدوات التخريبية.

ما تشعله من حالة الخشونة إلى الحالات العليا فإن مجموعة المعتقدات الدينية القديمة تقارن هذه النار بصعود ما تسميه «الكنداليني Kundalini» على طول منتصف العمود الفقري الذي يحقه بالتحويل المتوالي للطاقة النطفية إلى يقظة روحية. لكن النار يمكنها كذلك أن تهبط وأن تتحول إلى عقابٍ كما يشهد على ذلك «لوسيفير»⁽¹⁾ Lucifer الملك حامل النور الذي أصبح أمير النار التحتأرضية.

والهواء هو العامل الخاص للعالم الوسيط، وسيط بين السماء والأرض وبين النار والماء. إنه الوسط الذي يظهر فيه النَّفس الإلهي المماثل للفعل الذي يخرج من فم يهوى كما هو في الوقت نفسه نفس منخره الذي يمثل الطاقة الخلاقة والحافظة للحياة. والهواء في الهند ممثل بالإله «فايو Vayu» ملك المجال اللطيف، الذي يمتطي ظهر غزالة، الأسرع بين الحيوانات، ويحمل علماً خفياً أمام رياح التيارات الكونية الثمانية. وهذه التيارات متصلة باتجاهات الفضاء الثمانية التي تصفها، لأن المثلثين الزوايا هو الشكل الوسط بين المربع الأرضي والدائرة السماوية، وفي أثينا كذلك، كان لبرج الرياح ثمانية أوجه تتصل برمزية أيام العيد الثمانية «الأوكتاف». فالهواء هو انبثاق نسمة الروح، الذي يتحرك في سفر التكوين على المياه الأولية ليفصلها ويخلق العالم. ويمكن تقريبه من «همسا Hamsa» عند الفيليين والإوز الرباني الذي يبيض بيضة العالم على هذه المياه نفسها.

«وفايو Vayu» الذي يجمع سلسلة العوالم كالخيوط هو انبثاق من «آتما Atma» نسمة الروح العالمي. ولما كان العالم محبوكاً بخيط «آتما» فإن الإنسان محبوك بالأنفاس الخمسة لاتجاهاته الخمسة، لأن سيرها المشترك مع «الكنداليني Kundalini» في مجموعة معتقدات ومذاهب «التاندرا» وعلم الأجنة الطاوي لا يشير بمجرد التنفس الطبيعي فقط بل يجمع كل الطاقات الحيوية. وسيادة «برانا Prana» التي تلاحق «اليوجي» تجر السيادة الذهنية للطاقة المَنَوِيَّة والتنفس الثاقب.

(1) لوسيفير اسم للشيطان الذي كان ملك النور والذي هبط بعد تمرده على الله.

وعندما فصل النَّفس الإلهي المياه الأولية على إمكانات لاشكلية عليا وشكلية سفلى، ظهرت الغيوم والندى والمطر على شكل بَرَكَات، لأن السماء الذي تستقبله الأرض هو نبع الحياة. إنها تمثل لانهائية الممكنات، وعود التطور وكل تهديدات الانحلال. أن يغطس الإنسان في الماء هو أن يعود إلى الينابيع. وفي الهند، الماء هو الشكل الجوهرى للمادة الأولية «للبراكريتى Prakriti» المبدئي في حين أن عالم المستقبل كان مستقراً في عمق المحيط الأولي.

والروح القدس هو ينبوع المياه الحية والتغطيس هو التجدد. والعماد هو ولادة جديدة وكل عبادة نمت دائماً قرب نبع ماء. وفي التوراة، تلعب الآبار والينابيع والمناهل دوراً رئيسياً في المكان المقدس الذي تتم فيه لقاءات سماوية وتتحقق فيه الاتصالات والعهود والمواثيق.

والقمر شريك للماء كما الشمس مشاركة للنار. يلعب بضوء غير مباشر فإنه رمز التبعية. وبعودته إلى الظهور الدوري، يرمز إلى التجدد. إنه يقيس الوقت، الأسابيع والأشهر وفقاً لدائرتة الخاصة ويجمع الإيقاعات المتغيرة التي يجمعها التماثل ويقربها منه. وهو يراقب عوامل الخصب والتنبؤ.

كان القمر أول ميت كما يشهد على ذلك اختفاؤه من السماء الليلية خلال الأيام الثلاثة الأولى لعودته إلى الظهور. والأرواح الميتة ملزمة بالمرور عبر فلكه، مثوى الإلهات القمرية: إيزيس Isis، عشتروت Astarté، أرتميس، لوسين، هيكات Hécate، وبرسيفون Perséphone، اللواتي هن كذلك إلهات جهنمية Chtonien⁽¹⁾. إنها ترمز إلى المعرفة غير المباشرة وغير الحدسية والمنطقية التي تمثلها البومة، طائر مينرفا Minerve الليلي. وفي الهند، كرة القمر هي نهاية درب الأسلاف حيث يمهّد انحلال الأشكال القديمة لقدم المستقبل، وهو ما يمكن تقريبه من دور «شيفا Shiva» الذي شعاره هلال قمر.

(1) جاءت الكلمة في النص على هذا الشكل وهي تعني العديد من الإلهات الأسطورية اللواتي يعشن في أعماق الأرض كما يؤكد الوثنيون.

الهلال هو أكثر صور القمر رواجاً، يشبه بكأس وبكل وعاء يحمل وعود التجدد كسفينة نوح العائمة على مياه الطوفان التي كانت تمثل النصف السفلي من «بيضة العالم» التي كانت القبة السماوية تتم شكلها. والهلال هو كذلك حرف النون «ن» الذي يتزاوج في اللغة العربية مع شكله. وفي التقليد الاسلامي، يمثل هذا الحرف السمكة التي كان «يونان Jonas» محبوساً فيها بعض الوقت كما كان نوح في السفينة قبل أن يُنقذ منها. ومن وجهة معنى الهلال فإنه يمثل البعث بسبب إيقاعه الشهري والتحويلات القمرية. وفي التفسير العبري للتوراة، يرتبط حرف النون كذلك بفكرة التولد الجديد والبعث.

والرمزية الأكثر عمومية للكأس هي الإناء الحافل الذي يجمع ماء السماء أو الحليب من ثدي الأم الذي يقارن هو الآخر بالكأس. ولنضف أن بعض الثمار المائية التي يمكن اعتبارها كؤوساً طبيعية لوقف العطش، القرع، الكباد، البرتقال، البطيخ، هي بالنسبة إلى الطاويين رموز الخصوبة بسبب بذورها العديدة التي هي رشيم الإثمار المقبل.

ورمز أسطوري للكأس هو كأس «جرال Graal»⁽¹⁾ الذي جمع دم المسيح على الصليب والذي أصبح بذلك كأس كل القداديس وشبيهاً بجميع القلوب. وما تؤكده اللغة الهيروغلوفية المصرية عن القلب رسم على شكل كأس. فالقلب حسب التقاليد هو مركز الكائن وينبوع الذكاء البدهي قبل أن يصبح مركز الشعور. وهو بإيقاعه سيد الوقت. وهو في الهند مسكن براهيم وفي الإسلام عرش الله. وعند تحنيط جسم ما خلال المراسم الجنائزية في مصر القديمة، كان القلب هو العضو الباطني الوحيد الذي لا يُمس في جسد المومياء.

(1) الغرال المقدس وهو الإناء الذي استخدمه السيد المسيح في العشاء السري وفيه تلقى يوسف الرامي الدم الذي سال من جنب المسيح المصلوب بعد طعنه بحربة.

وعندما يتكلم القرآن عن الروح الإلهية التي نفخت الحياة في آدم فإن الأمر يتعلق بالقلب كما أكدّه الشاعر «الجيلي Djili» لأن الرؤية الروحية بالنسبة إلى كل الصوفيين مقارنة «بعين القلب».

والجرال الذي هو إناء «grasale» هو كتاب أيضاً «جرادال gradale». فهو كشف روحي وحياة عضوية، وعقائدي معاً. ووفقاً لتقليد قديم قد يكون «الجرال» قد نُحت في زمردة وقعت من جبهة لوسيفر عندما سقط من السماء، وهو شعار يمكن تقريبه من «الأورنا Uma»، هذه الزائدة الفطرية الرمزية التي كان «شيفا Shiva»⁽¹⁾، وبوذا يحملانها على جبينهما بين الحاجبين والتي تمثل معنى الأزلية التي فقدتها لوسيفر عند سقوطه مباشرة.

والطاولة المستديرة التي يستريح جرال عليها تذكر بحجر قبر المسيح المقدس وبالمثال المحتذى في كل المذابح الكنسية. إنها تمثل وسطاً روحياً. وحول الدائرة البروجية المثالية التي ترسمها هذه الطاولة، احتل الرسل الإثنا عشر الإشارات الإثني عشرة النجمية حيث سيقم فيما بعد الفرسان الإثنا عشر، فرسان جرال Graal. وهذه الطاولة البروجية المستديرة هي صورة عن القبة السماوية بينما اللوح المحفوظ في الإسلام هو صورتها الأرضية، مكان المادة المبيّنة التي يسجل عليها القلم الإلهي مصير أقدارنا.

والصدفة ككل القواقع البحرية هي رمز مائي وقمرى آخر. إنها مقارنة عالمياً بالجهاز التناسلي الأنثوي وهي مصدر أسطورة «أفروديت Aphrodite»⁽²⁾ المرأة البحرية التي ولدت من قوقعة بحرية.

واللؤلؤة، ثمرة القوقعة، كاللوزة، صورة لنقطة من المني أو الندى سقطت من السماء، ترمز إلى القوة المولدة والطاقة الكونية، من هنا يقوم دورها في طقوس

(1) الإله العظيم الثالث في الديانة الهندوسية إله التدمير.

(2) أفروديت إلهة يونانية للجمال والحب وهي فينوس الرومانية.

الولادة أو المآتم. والقوقعة البحرية، بسبب الضوضاء الغامضة والغريبة التي تصدر عنها إذا ما أدنيت من الأذن، كانت معتبرة كمصدر للصوت ومستقبل له. والكهنة التيتيون كانوا يستخدمون صداها المتواصل لغمر ذهنهم بإدراك الصوت الطبيعي للكون.

ولما كان الصوت واللؤلؤة محفوظين في الصدفة، كانت تعتبر في التبت كمتهم سلبى لـ: «فاجرا Vajra» - الصاعقة - الفعالة، وبذلك تلعب دور الجللجل الشبيه بدوره بكأس مقلوبة تكون اللؤلؤة أداة الضرب فيه. وهذا التكامل كان معروفاً كذلك في الصين حيث كانوا يستعملون صدفة كبيرة «ليسحبوا» الماء من القمر بينما كانت مرآة معدنية تعمل على «سحب» النار من الشمس.

وبالتطوير اللوغاريتمي للولبياتها التي يعددها «الرقم الذهبي» والذي يحكم نمو الأحياء، أعطى شكل القوقعة الحلزوني رمزاً للولبية.

واللولب المسطح يستدعي رسم المئاة أي العودة إلى المركز: واللولب المزدوج يمثل الحركتين المتكاملتين: التطورية والداخلية للحياة والموت. وهذا يشبه التكور المزدوج للأفعى في شارة الطبابة، الرحوية المزدوجة لعصا براهما والحركة المزدوجة لـ «النادي nâdis» حول الشريان المركزي «لسوشوما sushûma» والحركة المتناوبة التي يمارسها «الدوفا devas» و«الأسورا asuras» أثناء مخض «بحر اللبن amrita» والحركة الترددية للقداحة ذات القوس التي تولد النار باحتكاك الخشب. إنها رمزية دائرية تلحق برمزية العجلة التي يمثلها اللولبان المتشابكان اللذان يشكلان «السواستيكا».

ولنبق مع الماء الضروري للحياة الذي هو سابق لميلاد الكون. هناك أسطورة هندوكية تقول إن العالم نتاج بيضة «براهمندا brahmada» حملتها المياه وحضنتها الأوزة «هامسا hamsa». وفكرة البيضة الكونية هذه التي هي أصل الظهور، تعود إلى الظهور في علوم نشأة الكون - كوسموغونيا - الأخرى كالبيضة التي بصفتها «كنيف

«Kneph» المصرية والإوزة الصينية وبيضة «الديوسكور»⁽¹⁾ «Dioscures» التي حضنتها ليذا بعد اقترانها بالإوزة. وتلقاها كذلك في نشوء الكون لدى «الدوجونيين»⁽²⁾ «Dogons» و«البمبارا»⁽³⁾ «Bambaras»، وباعتبارها رمزاً للوجود والنشور فقد وُددت بيوض بين يدي صُور «ديونيزوس»⁽⁴⁾ «Dionysos» في مقابر «اليوسى» «Boétie». واليوم تعتبر بيضة الفصح رمزاً لبعث المسيح ولعودة الحياة الربيعية إلى الطبيعة. وفي هذه البيضة الكروية كأندروجين الأفلاطونية، تقوم حالة السماء والأرض مغلفة قبل أن تظهر ولم تظهر إلا بعد أن انشقت البيضة إلى قسمين وفقاً لعملية مشابهة للاستقطاب الذي تمّ لأندروجين، وكانت هذه البيضة تحوي الوفرة العددية للكائنات في رشم يسميه الفيديون المضغة الذهبية رمز الوجود الكوني الكامن.

وبعد انشطار هذه البيضة لا يمكن إدراك فعل السماء مباشرة ما دامت الأشعة الشمسية غير المحتملة استعصت على الرؤية إلا في صورتها المنعكسة على سطح المياه. والقمر الذي يرسل أشعة شمسية لا يمكنه أن يعطي إلا صورة غير مباشرة في انعكاس وهمي ذي خاصية تحولت إلى تأمل عقلائي ما دام التأمل هو ملاحظة السماء بواسطة مرآة.

يبدو الظهور إذن كأنعكاس مقلوب للمبدأ الذي ظهرت صورته على سطح المياه فبات رمزاً، يعبر عنه الصوفيون بقولهم إن الكون مجموعة من المرايا يمكن تأمل «الجوهر» فيها تحت ظاهرة كل الأشكال وفي اليابان مثلاً نجد المرايا الشمسية في كل المعابد الشنتوية⁽⁴⁾ كما نرى الصليبان في الكنائس المسيحية.

-
- (1) اسم أطلق أسطورياً على أولاد زيوس الآلهة كما يطلق على حصاني كاستور ويولوكس.
(2) الدوغون شعب من مالي يعيش على مرتفعات بندياغارا والبمبارا شعب من فصيلة ماندي Mandé يعيش في السنغال ومالي لا حضارة معروفة لهما.
(3) ديونيزوس إله النبات اليوناني وبصورة خاصة الكروم والخمر.
(4) شنتو Shintō هي الديانة اليابانية الأهلية التي تمجد الأجداد وقوى الطبيعة.

وتحقيق الإمكانيات التي تضمها البيضة الكونية يتم بفضل فعل شمسي في العمق ممثل في مختلف التقاليد، بتفتح زهرة، لوتس، وردة، قلة، على سطح السماء وهي خريطة انعكاس الشعاع السماوي الذي يتم فيه المرور من العالمي إلى الشخصي أو العكس.

فالزهرة هنا رمز لمبدأ سلمي. كأسها⁽¹⁾ يماثل الكأس التي تتلقى المطر والندى السماوي. وتفتحها على سطح ماء راكد وكذلك بالنسبة إلى زهرة اللوتس، أو في حديقة بالنسبة إلى الورد، تمثل انتشار وتطور الظهور بكامله.

والزهرة باعتبارها قرصاً أفقياً وسليماً هي الستمم للرموز العمودية والفاعلة، رموز الفعل السماوي كحربة لونغين⁽²⁾ Longin التي قطرت منها دماء المسيح في الكأس المقدسة خلال حفل غرال Graal أو كدم أدونيس الذي جرح بناب خنزير بري يعطي هذا الدم الحياة لزهرة شقار مضرجة حمراء. وفي العصر القديم كانت حدائق أدونيس تعبر عن الازدهار الربيعي التجدد.

زهرة اللوتس الناتجة عن ظلمة المياه الراكدة، تنشر على سطحها بتلاتها الثماني حول تويجها في الاتجاهات الثمانية للفضاء. ويمكن تشبيه برعمها بالبيضة التي تتفتح بتفتح الزهرة. والأيقنة⁽³⁾ الهندية «ايكونوغرافيا» ترينا فيشنو نائماً على سطح المحيط البدئي بينما تنبعث من سرته زهرة لوتس يجلس عليها براهما. والهند تميز بين زهرة اللوتس الوردية «padma» الرمز الشمسي واللوتس الزرقاء «utpala» رمز القمر. والتضرع الشهير: «اوه» الحلية في اللوتس! يعبر عن تمجيد الإله في حوض «دهارما dharma» الكوني.

(1) كلمة Calice التي تترجم بكلمة كأس هي من الناحية الدينية الإناء الذي تقلس فيه الخمر في الكنيسة ولم أجد كلمة تعطي هذا المعنى لأميزها عن الكأس العادية.

(2) شهيد القرن الأول الميلادي، هو الذي آمن بعد أن طعن المسيح بجريته في جنبه فاعتبر قديساً.

(3) الإيكونولوجيا علم يتعلق بدراسة كل ما يشكل عهداً من العهود كما يعني كذلك دراسة الفن الديني.

والوردة الإيرانية تتفق مع اللوتس الهندوكية والصينية. وفي الدراسة الدينية المسيحية هي الوعاء الذي تلقى دم المخلص أي أنها تمثل «Grael» المقدس المتمثل هو نفسه بقلب المسيح وهو ما يدل بوضوح على معنى شعار أنصار الصليب الوردي⁽¹⁾. إنها رمز العودة إلى الحياة والورود توضع دائماً على القبور. و«هيكات Hécate»⁽²⁾ التي ترأس الجحيم كانت تمثل متوجة بالورود.

وهكذا يمكن أن نعتبر العالم كأرض مقدسة في وسط المحيط الكوني، جزيرة في وسطها يقوم جبل تعلوه هو نفسه شجرة مقدسة. ينابيع تنساب من أسفل هذه الشجرة ومجموع هذه الأماكن المتميزة يمكن اعتباره الإدراك الأول لمكان محفوظ أي مذبح في معبد.

وهذه الصورة الكونية المصغرة، هذا العالم الصغير المصغر يمكن استبداله بقصر ملك وسط بحيرته أو بحصن وسط خنادقه أو بحديقة تحاول الحقائق الإيرانية أو اليابانية إعادة تشكيلها أو بالحدائق المسورة للبيوت الإسلامية أو جدران الأديرة، هذه كلها صور لجنة وُجدت من جديد. هذه هي التي تحمل محلها رمزياً أجمل قطع السجاد الإيراني بزهورها وحوضها الوسيط وطواويسها المتقابلة مع شجرة الحياة.

خامساً - الوسطاء الكونية الكواكب السيارة، الأعداد والألوان

الكواكب السيارة. - لعبت الكواكب والنجوم والسيارات دوراً رمزياً ذا أهمية كبيرة لأنها جذبت بانتظام حركتها انتباه المنجمين الذين كانوا أوائل الرياضيين وذلك لأنها تحلت بصفة مقدسة لكل ما يرتبط بالسماء.

(1) روزكروا Rose-Croix حركة صوفية أسسها كريستيان روزنكروتس في القرن الخامس عشر وهي شائعة في كثير من الأمصار المسيحية.

(2) Hécate إحدى الإلهات اليونانية ربة السحر والافتتان.

لا تزال النجوم تتمتع ببعض التأثير إذا ما صدقنا الخطوة الشعبية التي تنعم بها «نجومنا» الحديثة. وليس في الدين اليهودي البدائي وحده يسهر ملاك على كل واحدة منها.

فالنجم القطبي الذي يلعب دور المحرك الأول، والذي تدور حوله القبة السماوية أصبح حديثاً رمزاً للتفوق. في الصين، يشبه الحكماء به وفي تقاليد أخرى، اعتبر مسمار السماء، سرّ العالم والدعامة الشمسية.

ولرسم النجمة خمسة تشعبات أو «البنتاغرام Pentagramme» كان يعتبر دائماً كصورة للعالم الإنساني الصغير وهو تفسير ورثته نجمة الماسونية المتوهجة. وكون البنتاغرام موضوعاً بين الزاوية القائمة التي تصلح لقياس الأرض والفرجار الذي يصلح لقياس السماء، يجعله رمز الإنسان المتجدد، السيد المدرّب للرفيق الكامل في نظام المرافقة. وعلى قطعة فسيفساء في مدينة بومبي لا بد أنها لمهندس معماري، يمكننا رؤية جمجمة خماسية موضوعة تحت مثلث على شكل سقف مدعوم بدائرة بمنحّة، هي الوعد بالعودة إلى الحياة من وراء القبر.

والبنتاغرام Pentagramme رمز سري للعرفان عند الفيتاغوريين يتصل رياضياً بعدد لا معقول «العدد الذهبي» مترجماً معدلاً وسطياً (1،618) أسماء باتشيولي⁽¹⁾ Pacioli صديق ليونارد دافنتشي Leonard de Vinci⁽²⁾ المعدل الإلهي. إنها تعرف بالقانون المثالي للإنسان الذي تقسم سرّته الجسم تبعاً لهذه الشعبة الذهبية نفسها. إنها تتحكم كذلك باللولبية اللوغاريتمية للنمو التي تتطور المخلوقات الحية تبعاً لها دون تعديل في أشكالها.

(1) لوكا باتشيولي رياضي إيطالي 1455-1510 وعالم جبري جمع الخبرات العربية في كتاب «السومما Summa» عام 1494 ودرس كذلك موضوع الذهب.

(2) مصور ونحات ومهندس وعالم إيطالي 1452-1519، له رسوماتسو تماثيل عديدة للعذراء والمسيح وغيرهما.

أما النجمة السداسية المسماة «درع داود» فهي شعار اليهودية، إشارة إلى الصلح والتوازن وعلم إسرائيل.

لقد تكلمنا من قبل على رمزية النيران الشمس والقمر. إنها تعود إلى أبعد القدم كرمزية الكواكب الخمسة الأخرى المعروفة في بلاد الكلدان وفي مصر. والامتياز الحالي المدهش لعلم الفلك يعطينا من الإصرار على إثارتها من جديد ولسوف نقتصر على الإشارة إلى العلاقة بين هذه الكواكب بالمفهوم الديني.

كبير الملائكة ميكائيل مرتبط بالشمس وزكارييل Zachariël بالمشتري ورفائيل بعطارد وجبرائيل بالقمر وعمائيل بفينوس الزهرة وسمايل بالمريخ وأوريفيل بزحل. وفي المسيحية، رغم تبنيتها الملائكة، تخلت عن مشاركتهم للكواكب فكانت الهرمسية هي التي أعادت الصلة بين الكواكب السبعة وخصائص الإنسان المماثلة عددياً والفضائل السبع والعيوب السبعة. عزيت الإرادة إلى الشمس وكذلك الإحسان والكبرياء، والإبداع للقمر وكذلك الإيمان والكسل، ولعطارد العقل والاعتدال والرغبة، وللزهرة الانفعالية والأمل والفسق، وللمريخ الحيوية والقوة والغضب وللمشتري الإلفة والعدالة والفهم ولزحل التمييز والحكمة والبخل.

والشمس خلال حولتها الظاهرية بين مجموعات النجوم تتبع سنوياً طريقاً يدعى دائرة البروج وهو الخط الوسط لمنطقة عرضها «17» سبعة عشر درجة. تسمى فلك البروج. ولقد قسم القدماء هذه المنطقة إلى ثمانية قطاعات ثم إلى إثني عشر وفقاً للأشهر الإثني عشر للسنة وأعطوها أسماء النجوم التي تحويها. وعلماء الفلك اليونانيون عزوا كل واحد من هذه القطاعات إلى واحد من الآلهة الإثني عشر من مجمع آربابهم الأمر الذي حول هذه الكوزموغرافيا «وصف الكون» إلى النموذجية - تيولوجيا⁽¹⁾ - شارة «الحمل» تنطبق على «بالأس Pallas» الذكاء المحقق، والشور على «أفروديت Aphrodite» الخصب المتواصل، والجوزاء على «هرمس» الذكاء القياسي، والسرطان على «زوس Zeus» الخلق الأولي، والأسد على أبولون القدرة

(1) علم النماذج البشرية منظوراً إليها تبعاً للعلاقات بين الطبائع العضوية والذهنية.

الحافظة، والعذراء على «ديميتر Déméter» الذكاء التحليلي، والميزان على «هيفايستوس Hephaïstos» الحكم الرزين، والعقرب على «آرس Arès» التمرد المحوّل، والجدي على «هيرا Héra» التنظيم السياسي، والدلو «هستيا Hestia» الذكاء البدهي، والحوت على «بوزيدون Poseidon» التضحية الاجتماعية.

الأعداد. — مفهوم العدد ولد ولا ريب من التأمل بمجموعة من الأشياء المتماثلة أو ذات ميزة مشتركة الأمر الذي حثّ أحد الأسلاف الأوائل على اعتبارها كتكرار جمعي لشيء واحد. كان هذا أول تطبيق لنظرية المجموعات. ولكي يتم العدّ ظل الإنسان البدائي يعتمد على الحصيات Calculus — التي أصبحت العوامل المستعملة للعدادات التي لا تزال مستعملة الآن في الصين كما أن لعب أطفالنا بالكلل ما هو إلا استمرارية لذلك.

وبعرضنا لرمزية الأعداد التي هي مفهوم المجموعة والتي هي السبب الموجّه لدراستنا، يمكن تسهيل الإدراك والحصول بالمقابل على بعض المعرفة. يجب في البداية التركيز على طبعي الأعداد اللتين تظهران تساوي حديهما وتكاملهما. ويجب التمييز بين دورهما كأعداد أصلية تحدد الكمية وإعداد ترتيبية تدل على الصفات، وهو تمييز ابتدائي في ظاهره لكنه يعمق في محصلاته النهائية. ومن المناسب أن نبين أن «الصفّر» ليس عدداً بل نقطة الانطلاق لكل تعداد سابق للوحدة ورمز للإمكان الشمولي.

الأحادية، 1. كانت الأحادية تعتبر دائماً رمز الكون، رمز إله شخصي وهذا لا يعني الوحيد بل الأول في تسلسل السلطة. ويمكن لرجل دين رياضي أن يفسر هذا السلطان المطلق بمعادلة من طراز: « $\alpha=1$ » أي أن الواحد يساوي اللانهاية وهي حقيقة كيفية تكون لامعقولية كمية. واللاهوتية السلبية يمكنها الذهاب حتى إلى أبعد من ذلك وافترض معادلة أخرى أكثر لامعقولية: « $0=\alpha$ » أي اللانهاية تعادل اللاوجود، الأمر الذي يعود إلى تعريف الله بمجموع الممكنات كما فعل من قبل لايبنتز Leibniz.

يُفهم إذن أن ملحداً وموئناً يمكنهما تقبل هاتين المعادلتين المتناقضتين بأن يعطيا للمعنى الكلمات مفهوماً متناقضاً وأن يعتبراً هاتين المعادلتين كتعريف يعني التدرج الطبقي. غير أنه بالنسبة إلى معهد الزمن الغابر كان الأزل في صفة يعطي العلامة القصوى وهي (20) فإن ذلك يمكن كذلك من إيجاز هذه الواقعة بمعادلة: $(20=1)$.

وبعرضنا لرمزية الأعداد علينا إذن أن نميز أولاً بين هذين المفهومين المتناقضين المتميزين في أغلب الأحيان. مثلاً رقم (2) الذي يبدو كمياً ضعيف الواحد ليس في الحقيقة غير جزء من جزئي الواحد اللذين يجب جمعهما للحصول عليه مما يعبر عنه في المعادلة: $(1=1/2 \times 2)$ والعملية نفسها يمكن تجديدها بأي عدد آخر، فالألف على سبيل المثال يعطي المعادلة التالية: « $1=1/1000 \times 1000$ » وهو ما يعود إلى القول إن كل ما كان مجموع الرقم المقدر كبيراً كانت أهمية كل جزء من أجزائه صغيرة. «وحرية» كل منها تقلّ بنسبة العدد الذي يشكله.

وعدد (2) يمثل الثنائية والقطبية والجنسية وانقسام الوحدة إلى مؤنث ومذكر، فاعل وسلي، «يين ويانج» «Yin-Yang».

وعدد (3) الثالث، يفنح تقسيم الوحدة ويشكل ظاهرتها العنصرية كثنائي التركيب والثالث أو الثالث الأقدس⁽¹⁾. إنه يمثل الظاهرة المحدثة للثنائية التي هي بعد عقيمة، ابن الزوجين، أو الروح الفكرية (neshamah)، والروح المفكرة (rouach=رواخ) والروح الحيوانية (nephes=نفس) إذا أخذت على المستويات الثلاثة الخاصة واحدة.

وبعدد (4) الرباعي، نصل إلى توسيع الوحدة باعتبار أن الرباعي - القابل الانقسام على أربعة - هو عدد تجلي الفعل في الاتجاهات الأربعة للفضاء، العناصر الأربعة، الفصول الأربعة، أطوار الحياة الأربعة والجلبات الأربع. فرقم (4) هو المربع

(1) أود هنا أن ألفت نظر القارئ إلى أن رقم ثلاثة يبدأ بحرف التاء «trois» والكلمات الأخرى التي جاءت تبين ظاهرة تقسيم الوحدة: trinité, triade, ternaire.

والصليب وتربيع الدائرة: « $1+2+3+4=10$ » إضافة إلى دورانية ربع الدائرة: « $10=4+3+2+1$ » وهذه هي رباعية فيثاغور⁽¹⁾ «tétractys».

والعدد (5) الخماسي، يمثل الفلك والمادة والحياة باعتباره مؤلفاً من أول مزدوج وأول مفرد « $3+2$ » أي من الذكر والأنثى. إنه العوامل الخمسة: «النار، الهواء، الأرض، الماء والأثير»، الحواس الخمس وأصابع اليد الواحدة والكواكب الخمسة التقليدية باستثناء الكوكبين المضيئين. وهو التقويم الفيثاغوري الذي يشترك فيه الجزء الذهبي الذي يمثل الإنسان نفسه دون أن تغفل تعدادات صينية أخرى برقم (5).

والعدد (6) هو العالم الأكبر، العالم الذي خلق خلال ستة أيام، الرسوخ، التوازن، طبيعة الطبيعة «natura naturata» جهات الفضاء الست (الأربع الأفقية والسمت والنظير). إنه جمال العالم وإيقاعه الممثل بالكوكب فينوس «الزهرة»، والألوان الستة: ثلاثة أولية: الأزرق والأصفر والأحمر وثلاثة مشتقة: الأخضر والبرتقالي والبنفسجي، إنه خاتم سليمان والإنسان العالمي.

والعدد (7) هو رقم الطهارة والتكوين والوقت مع الكواكب السبعة وسبعة أيام الأسبوع وسبعة إيقاعات السلم الموسيقي ودرجات الدراسة السبع (الثلاثية والرباعية) والفضائل السبع والخطايا السبع، وهبات روح القدس السبع وحكماء اليونان السبعة. «السَّبات Sabbat» - السبت - في العبرية هو اليوم السابع ورقم (7) يرمز إلى التوحد مع الله.

والعدد (8) ثمانية أيام العيد، التحقيق، التوازن، الراحة، التفاهم الكامل، ميزان القبلانية - تفسير اليهود التوراة -، تعميد النصارى، العالم الوسيط بين دائرة السماء ومربع الأرض ونقطة توقف الظاهرة.

(1) فيثاغور Pythagore فيلسوف رياضي يوناني 570-480 قبل الميلاد لم يترك شيئاً مكتوباً. ونظرية وتر المثلث المنسوبة إليه كانت معروفة لدى البابليين قبل ألف سنة على وجوده. والحساب البيثاغوري يتعلق بالأرقام الكاملة.

والعدد (9) هو التعددية واستمداد الحياة والتسلسل.

والعدد (10) هو الكون، المجموع، عدد الأرقام. هناك عشرة أسماء ربانية عشر أصابع لليدين وعشر مقولات مدرسية: مادة، صفة، كمية، وضع، مكان، وقت، علاقة، مظهر خارجي، فعل، رغبة). وهو رقم الدائرة ومركزها على مبدأ بيتاغور: $(10=4+3+2+1)$. والرقم الأساسي الذي استعملته كل الشعوب تقريباً، الصفر (0)، المصريون، اليونان، الهنودوس، الصينيون، اليابانيون وتبته في حسابها.

والعدد «11» هو الخطيئة وفقاً لرأي القديس أوغستين لأنه يرتبط بالمركب، الثنائي: $(2=1+1=11)$. وهو كذلك «التوحد المركزي» للسماء الخامسة مع الأرض $(6+5)$. ورقم (11) هذا بمضاعفاته (22) و(33) أعداد ماسونية⁽¹⁾.

والعدد (12) تركيب للمبدأ الإثني عشري والمبدأ الدائري. فهناك إثنا عشرة إشارة للبروج الفلكية وإثنا عشر رباً كبيراً في الميثولوجيا القديمة، إثنا عشر تابعاً للمسيح (الحواريون)، إثنا عشر إقطاعياً لفرنسا، إثنا عشر فارساً للقديس «للقربان المقدس Graal» إثنا عشر شهراً للسنة، إثنا عشر ملكاً في الكتاب المقدس، إثنا عشر سبطاً، إثنا عشر بطريركاً، وإثنا عشرة ساعة في اليوم.

والعدد (20) تبعاً لأريسطو هو عدد التعاقب الذي يعتبر مع عدد (2) عدد الحركة المحلية والألف (1000) عدد التنامي يساوي (1022) الذي كان حكماً مصر كما يقول داتيه Dante يعتبرونه عدد النجوم الثابتة.

والعدد (50) هو العدد اليوبيلي أي $(49=7 \times 7)$ من السنين السبئية و $(50=1+49)$ السنة اليوبيلية.

(1) تكرر الحديث عن الماسونية. إنها تنظيم سري يضم أشخاصاً يتعارفون بإشارات معينة وتنظيماتهم موزعة في أنحاء العالم على شكل محافل خاصة. تأسست الماسونية في بريطانيا في القرن السابع عشر وفي فرنسا في القرن الثامن عشر وتركز على تأخي الأفراد والالتحاق بها يخضع لطقوس خاصة.

والعدد (60) كان قاعدة الحساب لدى البابليين. إنه عدد كامل ودائري سداسي وثنائي القسمة وعشري، يأخذ معناه إذا لاحظنا أن السنة كانت مؤلفة من ستة أشهر وأن أيام الشهر كانت ستين يوماً.

والعدد (64) هو عدد شارات الـ «ي-كينج Yi-King» والمائة (100) عدد إشارات دائرة كاملة و(1000) عدد التوافر.

الألوان. - هناك ستة ألوان كما يعرف الرسامون والمصورون لا سبعة إلا إذا أضفنا إليها اللون الأبيض الذي هو الرمز، ثلاثة منها أولية: الأزرق والأصفر والأحمر وثلاثة مشتقة من خليط من لونين أوليين: الأخضر من الأزرق والأصفر والبنفسجي من الأزرق والأحمر والبرتقالي من الأصفر والأحمر. وإذا وزعنا هذه الألوان على حلقة فإن الأبيض سيقوم في الوسط والأسود حوله. أما عن رمزيها، فإن الأحمر في الغرب هو لون المملكة الحيوانية واسم آدم يعني الأحمر، والأخضر هو لون المملكة النباتية والأبيض المملكة المعدنية رغم أن الأحمر في الصين يعارض الأسود كمعارضة النار للماء والأبيض للأخضر.

إن اجتماع الضدين في الألوان وتكاملهما يدوان مع مقابلة الأبيض والأسود، الضوء والظل، النهار والليل. مثلاً، في الجيتا Gîtâ الهندوكية يمثل الأبيض «أرجونا Arjuna» كما يمثل الأنا، و«كريشنا Krisna» يمثل الأسود و«الهُوَ Soi».

والأبيض المعزوّ إلى الشمس، تركيب ضوئي حدّي. إنه رمز خليط أو مرور بين حالتين أو وقتين، مرور من المراهقة إلى البلوغ لدى القدماء مع لبس التوج (Toge) البيضاء، انتقال من حالة التمني إلى حالة القبول ما دام المرشح «Candidus» يتلفع بثياب بيض فيما مضى، وهو انتقال من الحياة إلى الموت، والأبيض كان لون الحداد عند القدماء وفي الصين ولون المعمدين الجدد والأكفان.

والأسود هو ظلام البدايات، الحالة الرئيسية لعدم الظهور، لكنه كذلك في القطب الآخر لون الظلمات الخارجية. إنه يرمز إلى الموت، السلبية، القبول، الحداد،

كالوشاح الذي كان يغطي رأس المحكومين بالإعدام وكلون شراع سفينة «تريستان Tristan» ومعاطف الدراويش الدواريسن الذين يخلعونها عند الرقص ويلبسون ثوباً أبيض.

والأسود هو كذلك لون الإلهات الجهنميات، لون العذراوات السود، والحجارة المكرسة «لسيبيل Cybèle»، أسود كلون حجر الكعبة. ولقد أُلّف جلال الدين الرومي مراحل الصعود والارتقاء الداخلية للصوفيين على سلم اللونيات بدءاً من الأبيض إلى الأسود مروراً بالأحمر كما هو الحال في الكيمياء «alchimie» حيث يمثل الأسود الهرمسي العودة إلى السديم غير المتميز بعد مروره بالتححرر من الأحمر.

لرمزية الألوان حسم فلكي. فالأحمر المريخي يمكن أن يكون نهائياً أو ليلياً. والأحمر النهاري هو ذكري ونابد، إنه القوة الحيوية لغريزة الحب «éros»⁽¹⁾ المنتصرة، الفضيلة المحاربة، الثراء والحب. والأرجواني كان اللون الذي يفضلها الأباطرة البيزنطيون والنبلاء الرومان والذي ورثه الكرادلة عنهم. والأحمر الليلي هو أنثوي وجابد. إنه لون نار الأرض المركزية وتنور الكيماويين. إنه لون الدم الرّجمي.

هناك أصفر شمسي. إنه رمز الفتوة والقوة كالذهب الذي يرتديه الأباطرة والملوك. لكن الأصفر الضوئي، ذهب باهت، هو رمز عدم الثبات والغيرة والبلوغ والخيانة.

والأزرق البرجيسي لون بارد وعميق، لون الهواء والفراغ، لون الحقيقة بالنسبة إلى المصريين. والأزرق الفاتح يثير الأوهام في حلسم النهار والأزرق الغامق القريب من الأسود هو صورة الحلم الليلي. وإنه كذلك نقاء الفوق طبيعي ومعطف الربوبية كمعطف العذراء.

والأخضر الزهري هو اللون الوسيط للنباتات، لون المياه المطهرة التي تتجدد. ولما كان الذهب الشفاف أخضر اللون، فإن الزمرد يسهم في روعة المعدن الثمين.

(1) هذه النظرية جاءت على لسان «فرويد» كما هو معروف.

والبنفسجي الزُّحلي هو لون الشهداء وثوب المطارنة والحداد بالنسبة إلى الأرامل.

والبرتقالي العطاردي هو لون الاعتدال والعقل.

سادساً – العالم الأرضي: فن العمارة

وصلنا إلى نهاية منحدر وهمي قادنا من أعلى جزء من السماء تقيم فيه الآلهة إلى أرضنا. وفي طريقنا رأينا أسلافنا يستعملون الظاهرات الكونية للتعبير عن أفكار ومشاعر لا تزال تكون جزءاً من ميراثنا الإيديولوجي. وستكشف لنا الأرض أصل عدد آخر من الرموز المعمارة للمواد المستخدمة في بناء العمارات وفي فلاحه الأرض والعدانة.

إن أقدم مادة حرفية مع الأرض كانت الخشب وكل قطع البناء ظلت على حالها في أشكالها ووظيفتها ورمزيتها عندما حلّ الحجر محله. في اليونانية، كلمة «هيليه» hylé معناها «خشب»، وتعني كذلك المبدأ الأساسي للمادة الأولية في العالم. لهذا السبب، عبارة «مهندس الكون الأعظم» في الماسونية تعني النجار أو الخشّاب لذا قيل إن المسيح ابن نجار.

وباستعمال أشجار الغابة وأخشاب الأدغال لإقامة أعمدة المعابد، كانت الهندسة القديمة قد نجحت بالطبع في التبيّن التام لعوامل الكون. في الهند مثلاً، كان الصانع الماهر الأول، الخالق «فيشفاكarma Vishvakarma» ممثلاً حاملاً في يده بلطة النجار وقضيب القياس، الرمز الذي وضعته رؤيا يوحنا الإنجيلي - آخر كتاب من كتب العهد الجديد - بين أيدي ملك يمسك بقصبة من ذهب ليفحص مقاييس القدس (أورشليم) السماوية.

توافق إحلال الحجر الميت محل الخشب الحي مع لون من بلورة دورية مساوية لاستقرار الرّحل، الأمر الذي أمكنه توفير نقل المزارات المقدسة الأولى من قمم

الجبال إلى أعماق الكهوف. فالحجارة غير المشذبة، عظام الأرض الأم، المنتزعة من مقامها الأرضي أنسنت - أي أمكن تحويلها إلى ما يرضي الإنسان - بقطعها بشكل مدروس وحُولت إلى أحجار «خالصة» جدرة بأن تستعمل في بناء المعابد.

والأسلاف كذلك جمعوا حجارة سقطت من السماء. وبما أن الأرض موهوبة سلباً لحيوية السماء، فإنها «تلقت وما تزال تتلقى وابلاً من الشهب عرفها القدماء كرسائل من أعلى». كانوا يسمونها «حجارة الصاعقة» في حين كانت في الحقيقة صَوَانًا قبتاريخيا «قبل التاريخ». لقد تبنا «حجارة المطر» كرمز للخصب وحجارة ربانية على غرار حجارة وسيطة لمعبد أومفال في «دلفيس Delphes» وحجارة خشنة كالحجر الأسود «لسيبيل Cybèle» ربة الخصب التي نقلت من «سيلينونت Selinonte» إلى روما في القرن الثالث.

والنموذج الطبيعي لكل فن عمارة كان الجبل بالطبع، رمز المركز الذي كانت الصور القديمة وغيرها كما رأينا من قبل، الركيزة البوذية وركيزة هرمس والنصب (بيت إيل) السامي والنصب الحجري العمودي النيوليتي - الراجع إلى العصر الحجري الأخير -، والأومفالوس اليوناني «Omphalos» واللنجا الهندوكي «linga» والمسلة المصرية. وكل بناء ومعبد وقصر ومدينة ومكان مقدس، كان مركزاً للعالم وكان عليه أن يتطور بحيث يصبح مضغة بشرية إنطلاقاً من المركز وهو نقطة الجمع للتأثيرات الصادرة عن اتجاهات الفضاء الستة.

وهذا التراجع الشعري إلى ستة مقاطع يفسر كما رأينا بالدور الوسيط لرقم (6) في الخلق الأمر الذي يبين السبب في إخضاع القواعد الست في الفن الهندوكي الذي أقامه «ياشودارا» في سياق الكاماسوترا Kâma-Sûtras أو في المبادئ الستة للرسم الصيني الذي يعود أول تأليف معروف له إلى «سي-هو Sie-Ho» أو في القواعد الست المبينة من قبل فيتروف Vitruve والمعتبرة أول قانون للهندسة المعمارية القديمة.

والهندسية التي كانت أصلاً قياس الأرض، تدخلت في البناء وتوجيه العمارات اليونانية بفضل الفرجار السماوي والزاوية القائمة الأرضية اللذين يقوم بينهما معلم

البناء، لأن نموذج كل بناء لكل عمارة كان يتطلب أن تكون له قاعدة مربعة وسقف دائري على غرار «الستوبا Stupa» البوذية والقبّة الإسلامية. ومن فوق إلى تحت، كان على البناء أن يحقق ممراً من الوحدة الأميرية إلى الرباعي في مظهر البناء. وإذا كانت القاعدة مستديرة كان عليها أن تصبح مربعة في توجهها.

وامتياز الشكل الدائري تفوق مدة طويلة كشاهد «للتولوس Tholos» اليوناني، المعبد المقدس المحاط بأعمدة وباحة معمدة مشتقة من الخصر الأولي القصبي. وهذا «التولوس» كان في حينه حزمة من الورق يكونها في الأعلى تجمع من السوق تشكل السقف. وخيمة الرحل كانت هي الأخرى مستديرة ومحيط روما القديمة كان دائرياً أيضاً باعتبار أن كلمة «أوربس Urbs» المدينة مشتقة من «أوربيس Orbis» الدائرة، لدرجة أن التبريك البابوي «أوروبي وأوروبي Urbi et Orbi» لم يكن إلا لغواً محترماً.

وقبل أن يتم بناء أي شيء، كان يتوجب القيام بشعائر ضرب الرمل لاختيار المكان المناسب ولتحديده. لأن مفهوم السور المقدس «لايركوس وتيمينوس erkos et temennos» كان أولياً وجوهرياً. وكان هذا السور يحيط بالنطاق العائلي وبالبيت والمقر وقبور الأسلاف التي يظل الوصول إليه ممنوعاً على الغرباء فلا يدنو منه غير أفراد القبيلة. وكلمات سيكوس إركوس «Sekos-erkos» التي عنت زريبة الأغنام، طبقت فيما بعد على محيط المقام العائلي ثم على باحة المعبد؛ كذلك فإن كلمة «حرم» في اللغة العربية تأتي من جذر «حَرِمَ» وتعني ممنوع.

وفي اللاتينية كلمة «تبلسم المعبد templum» من كلمة «تبار tempare. قسم» عبرت في بادئ الأمر عن قطاع محدد من السماء من قبل العرافين لمراقبة العوامل الطبيعية ومرور الطيور التي كانت تعتبر رسل السماء. ثم طبقت هذه الكلمة على مكان البناء حيث كانت تجري تلك المراقبة ثم على المراقبة نفسها التي أصبحت النظرة الضمنية الموجهة نحو المبادئ الربانية.

والسمة السماوية للشكل الدائري لازمت البنائين زمناً طويلاً وهي ما أظهروها على شكل قبة: في الصين كان معبد الضياء السماوي الـ: «مينج تانج ming-t'ang»،

ذا سقف دائري تحمله ثمانية أعمدة منصوبة على قاعدة مربعة. ولكي يتم تحقيق هذا التوزيع للدائرة الذي يبدأ من القبة السماوية نحو مربع الأرض، يجب المرور بالثمان المتصل بالعالم الوسيط ذي الثمانية أبواب واتجاهات ثمانية ورياح يمثل هذا العدد.

والغرف الرسمية المصرية كانت سقفها نجمية الشكل على غرار المحافل الماسونية. وفي «بيت الذهب» التابع لنبيرون، كانت قاعة العرش الدائرية مغطاة بقبة برجية تدور حول نفسها ليلاً ونهاراً. وفي قبور الشهداء المسيحيين كان القبر قائماً تحت قبة تذكر بها صدور كنائسنا وقبورها المقبب وهي الوليدة البعيدة للقبو الأصلي ولغار الحوريات. وفي القرن السادس عشر أيضاً كان الملك ينام على سرير، الجزء الأعلى منه اسمه «سما السرير». ومضجعنا الذي يأتي من الأسبانية من خلال العربية «الكوبّا - القبة»، يدل على القبة التي كانت دواوين الملوك العرب تقوم تحتها.

والموقع والمعبر، كل بيت هو مركز العالم بالنسبة إلى ساكنه، مكان للسلم والتفكير والأمن المشترك مع الطفولة ونار المدفأة وحجر الأم الذي يوقظ الذكرى. وفي الصين القديمة كان البيت مربع الشكل كالأرض يُفتح نحو شروق الشمس. وصاحب البيت يقيم فيه باتجاه الجنوب كالإمبراطور في قصره. وكان السقف مفتوحاً بدائرة مركزية لدخان الموقد وفتحة أخرى في الأرض تيسر تصريف المياه ملخصاً بذلك صورة فلاحية بسيطة لمركز العالم.

البيت العربي مربع هو الآخر يحيط بفناء مربع أيضاً ويحوي في وسطه حديقة وسبيلاً. وفي أفغانستان، المساكن المربعة والمحصنة للمقيمين تجاور الخيام الثلاثية الشكل للرحل والغرف المستديرة للتركمان. وبيت الشمس «للسيوكس Sioux»⁽¹⁾ مستدير تدعّمه وتربطه بالمركز الأوسط (28) عموداً تظهر دورة القمر الشهرية.

وفي بعض التقاليد، البوذية مثلاً، يشبه جسم الإنسان بيت ذي ست نوافذ تمثل الاتجاهات الستة (خمسة خارجية وواحد باطني). وفي الفكر المسيحي، الإنسان نفسه

(1) مجموعة شعوب هندية في أمريكا الشمالية «Crow، Hidatsa، Winnebago، Iowa، Dakota، Osage، Omaha» يتكلمون لغات متقاربة ويعيشون في السهول الممتدة من أركنساس إلى المناطق الجبلية.

معبد للروح القدس. بذلك يمكن من جهة أخرى تقريب رمزية البيت من رمزية الملابس التي هي «جسم روحي» حسب قول القديس بولس. وفي الصين القديمة، كانت القلنسوة المستديرة للمتعلمين وأحذيتهم المربعة تظهر أنهم يعرفون أشياء السماء وأشياء الأرض. والياقة المستديرة للثوب الإمبراطوري تقابل طرفه المربع.

وعلى الصعيد اليومي، أكثر عوامل البيت أهمية كان الباب وعتبته والممر من موقع إلى آخر ومن حالة إلى أخرى، من الضياء إلى الظلمات ومن النطاق الدنيوي إلى النطاق المقدس، من الإملاق إلى الثراء. وفي لغة الطاويين إغلاق الأبواب هو حجر النفس.

وهذه الرمزية تنطبق على «التورانا Torana» الهندوكية و«التوريي Torii» اليابانية وعلى بوابات الكاتدرائيات. كل هذه الأبواب التي تنفتح على سير محوّل يؤدي إلى مقصورة المعبد، إلى قدس الأقداس، إلى قلب البناء نفسه الذي هو باب للسماء. وفي التحليل الأخير، ممر الباب يرمز إلى المسارة إلى المعرفة. و«جانوس Janus» الرب الذي كان يحتفظ بمفاتيح الأبواب المدارية كان يرأس كذلك الأسرار. والعبور من الأرض إلى السماء كان يتم من باب الشمس. وثقب القبة هو الباب الضيق الذي يمكن تقريبه من سمّ الإبرة. وفي دعائم سواكف الأبواب في الكاتدرائيات، يمثل المسيح المبارك الباب الذي كان ينفتح منتصف الليلة الفصحية.

سابعاً - عالم الأرض - الزراعة

عندما أصبح بيت الله (بيت إيل beth-el) بيت الخبز، «بيت لحم beth-lehem»، بات حرم الله المحتجب المقر المحاط بالحقول قادراً على إطعام الشعب المختار. انبثقت المادة الرئيسية من المياه بعد إزاحة السديم فظهرت الأرض كعنصر خصب، رحم كانت مخبأة فيه الينابيع والجذور والمعادن. أصبحت الإلهة «سيبيل Cybèle» خالقة البشرية كما يقول «لوكريس Lucrece»⁽¹⁾، الأرض الأم للبشر الذين كونتهم والذين تطعمهم وتدفعهم.

(1) شاعر لاتيني 98-55 قبل الميلاد مؤلفاته متأثرة بالفلسفة الإبيقورية.

وإذا كان لا وجود للنار دون هواء فلا وجود للأرض دون ماء وهذا يمثل الإرث غير المتميز للسديم. ويكون للنبات بجذوره طبيعة ومصدر سابق على خلق النيران كما تقول التوراة. ونباتات عذّن تمثل تطور الرشيمات المتحصلة من دورة الوجود التي سبقت دورتنا. وهذا ما تعبر عنه أساطير الخليقة لدى مختلف الشعوب. في اليابان، أولية الماء تشير إليها أسطورة الأرض التي يحملها حوت. وفي الهند، وخصوصاً في الصين، تحملها سلحفاة. وعند الأميركيين - أي الهنود الأمريكيين - تحمل الأرض حية وفي مصر القديمة جُعران، وفي جنوب شرقي آسيا، فيل، وحركات هذه الحيوانات الحاملة للأرض تحدث الهزات الأرضية.

لكن الماء لا يكفي. فلكي تخصّب الأرض، يتوجب حرثها وبذرها. في الماضي، رسم إمبراطور الصين، وحديثاً ملك كمبوديا، بعد أن توسلا إلى السماء لتمنحهما المطر، الخط الأول الذي يقود إلى المحراث الذي تدخل سكته في الأرض كعضو الذكورة، وهذا يمثل نجده في السنسكريتية حيث الجذر الواحد يشير إلى المعرفة والقضيب.

واندفع الأسلاف في هذا التأنيس إلى أبعد من ذلك. فشبّهوا نمو النبات لكي يفسروه بحمل إلهة أنثى اسمها «جايا Gaïa» وهي الأرض الأولى أو «ديميتير Déméter» الأرض المستتبة، أو «سيبيل Cybèle» الأرض الأم. ومن جهة أخرى، كانت الزراعة اكتشافاً أنثوياً باعتبار أنها المنبع الجوهري لكل إمرأ، وفي حين كان الرجل يقنع بالصيد كانت المرأة تزرع وتحصد.

والدفن هو الأساس في زرع بذرة أنسية يجب أن تثبت من جديد. وحيث كان يحرق الشيوخ كان يدفن الأولاد. فالأرض أمّ حقاً وإذا كان الإنسان حياً فلأنه يأتي من الأرض التي تعيده إلى الحياة.

وتطوير اللقاحات يتم على هذا الشكل في دائرة حيوية كونية تفسر رمز البستان الفردوسي واللوتس المتفتح على سطح المياه والشجرة التي تثبت من بذرة مدفونة في الأرض والتي تعيش الطيور على أغصانها رمزاً للحالات العليا.

والنبتان المغذيتان اللتان سمحتا للإنسان بالبقاء كائنا القمح والكرمة اللذين كان «كليمان Clément»⁽¹⁾ الإسكندري يشبه إحداهما بالحياة العملية والثانية بالحياة التأملية. ويجب أن نضم إلى القمح النشويات الأخرى: الذرة البيضاء، الأرز، الفاصولياء، الشعير والذرة التي لا تزال أصولها غير معروفة والتي كانت تعتبر هبات من الآلهة. فالقمح والكرمة هما العنصران الرئيسيان «الإيلوزينية والدينوزيه»⁽²⁾ التي كان هدفها كشف سر الحياة للملقنين بمقارنة التطور البشري بالتبث النباتي الذي تتوقف حياته على صعود النسخ الدوري والذي كان يبدو للإنسان كما رأينا وعداً بالأزلية.

وفي سياق الأسرار «الإيلوزينية» كان «تريبتوليم الشاب Triptolème» ابن ملك «إيلوزيس» يحضر أمام «دميتير Déméter» الذي يعطي للأبطال سنبله قمح «محصودة بصمت» عربون المحاصيل المستقبلية كما كان بوذا في زمن ومكان آخرين يقدم بصمت زهرة لوتس لأنصاره المؤمنين المجتمعين. كان ذلك على ما يبدو طقس تكريس «ملحمي» وهو المشهد الأخير من التأمل والتفكير في الأسرار.

والكرمة كانت أكثر من القمح، تعتبر لزمن طويل كنبة مسيحية. فالنشوة الروحية كانت ميسرة بالسكر أو كانت مشبهة به. وألف متصوف إيراني شهير، عمر ابن الفارض، قصيدة يمتدح فيها الخمر «الخمرية» حيث يشبه الخمر بأرواحنا والكرمة بجسمنا. واستعمال الخمر، مشروب الآلهة، كان وسيلة للمعرفة والمباراة. كان يشبه بدم «ديونيزوس»، كما شبه بعد ذلك بدم المسيح. إنه يوقظ الخصب العالمي، النباتي والحيواني وحتى البشري.

(1) كليمان الإسكندري أبو الكنيسة اليونانية وفيلسوف مسيحي (150-216م) اعتبر الحقيقة المسيحية تنويعاً للفلسفة (الكتاب المقدس شرح فلسفة أفلاطون).

(2) Eleusis ميناء يوناني أثري قديم إلى شمال شرقي أثينا كانت تمارس فيه في العصور القديمة شعائر أسرار النبات. و«ديونيزوس Dionysos» إله النبات اليوناني وبصورة خاصة الكرم والخمر وهو ابن الإله زيوس والإلهة سيميليه Semele جعله الرومان فيما بعد الإله «باخوس Bakkhos».

والثور والتيس، رمزان حيوانيان «لديونيزوس» كانا في حقيقة الأمر مشهورين بقدرتهما التناسلية. وانبثاق العضو الذكر بعد كشفه يشكل واحداً من أسرار «الإيلوزينية». ويمكن رؤية هذه المشاهد مرسومة على جدران «دائرة الأسرار» في «بومبيه Pompei» وهي قرية من الكرم المدني التي تم اكتشافه أخيراً.

والرعد الذي يشير بالمطر المفضل كان يعتبر كخوار الثور والتضحية بالتيس خلال أعياد «ديونيزوس» كانت مصحوبة بنشيد قدسي، نواة التراجيديا «تراجوس أويدي tragos-ôidê» ومعناه «نشيد التيس». وهذا الدور للتيس الرسول حامل خطايا القبيلة الجماعية يمكنه أن يوضح سياق «تطهير النوازع» الذي كان أرسطو يعزوها إلى التغير المأسوي الفجائي.

ثامناً – عالم ما تحت الأرض – التعدين

قبل أن نوغل في العالم تحت أرضي يعطينا الظل والليل دلالة على الطبيعة. كان الليل بالنسبة إلى اليونانيين بنت «الخواء Chaos» أم^(*) السماء والأرض، أي أن الليل، في الآنية اللاموقوتة، رأى ولادة الكون وأحاط ظهوره بالظلمات على غرار كل الخلق والتحول الذي يتم في الظلام.

كان الليل يطوف في السماء ملتفاً بحجاب داكن مصحوباً بالجنيات «والباركات Parques»⁽¹⁾. وكان يتقدم واقفاً على عربة تجرها أربعة خيول سود رمز الساعات الليلية الأربع، الأمر الذي يجعله مرافقاً لأبولون الذي يقود عربة تجرها أربعة خيول بيض رمزاً لأربع ساعات النهار. والرمزية الأرضية تتأرجح على هذا الشكل بين النور والظلمة، وهو المعنى الإتيمولوجي لـ: «يانج Yang» و«ين Yin»، بين الجانب

(*) كلمة ليل في اللغات الأوروبية مؤنثة.

(1) إلهات القدر الرومانيات يقابلن الإلهات اليونانيات (Les Moires) وهن ثلاث أخوات: كلوتو (Clotho) تشرف على الولادة ولاخيزيس (Lachésis) على الحياة وأتروبوس (Atropos) على الموت.

المشمس والجانب المظلم كما هي الحال في الحلبات الإسبانية، وهو تعاقب كان وما يزال يفرض على بناء الصروح وعلى الزراعة توجيهاً كانت تحدده قديماً طقوس الهندسة.

وكان الوضع المركزي لجسم متعامد مع الشمس وضعاً «إمبراطورياً» مشابهاً لوضع «شجرة الحياة» التي لم يكن لها ظلال أكثر مما للأموات. وكان اليونانيون يحتفلون عند الظهر بالأضاحي المخصصة لهم، في تلك الساعة التي لا ظل فيها والتي لا تزال في الكنائس اللحظة التقليدية للقداس على الأموات.

وكان الليل يحجب بردائه العمل «التحت أرضي» «لسييل Cybèle» التي كانت بالأصل إلهة الجبل والتي كانت تتقدم في عربة يجرها أربعة أسود، هي الرموز الشمسية التي تظهر التساوي الحدّي لسلطتها السماوية والجهنمية الناتجة عن الحرارة المتراكمة في الأحشاء الأرضية والقادرة على دفع معجزة التجدد.

وبالدخول إلى جهنم، الجزء السفلي والباطني من الأرض، نلاقي رموز الأعماق الدنيا مع رموز الليل ورموز الهاويات ومقام الأموات الذي يوحى بالكرب والدوار. وكما قال «فرجيل Virgile»: من السهل الهبوط إلى «آفيرن Avern»⁽¹⁾ لكن الصعوبة هي في الذهاب إلى أبعد من ذلك ومواجهة سرّ التحولات واستخدام خصب الجذور واكتشاف «الينابيع الصفر» كما يقول الصينيون والوصول إلى الشاطئ الآخر، شاطئ العالم المتجدد.

والقبر مكان مخصص تتصل رمزيته برمزية الجبل والتلة والركمة قبل أن تنتقل بدورها إلى الكهف، مكان اللحد. لكنه يرمز كذلك إلى البعث. فالساميون كانوا يدفنون فيه موتاهم ويمكننا أن نرى حتى الآن في «حبرون Hébron»⁽²⁾ المغارة التي دفن فيها إبراهيم وسارة.

(1) بحيرة إيطالية قرب نابولي كانت تعتبر في الماضي المدخل إلى الجحيم. وفرجيل شاعر لاتيني قديم 70-19 ق.م.

(2) هي مدينة الخليل الحالية في فلسطين.

والتقليد المسيحي يعترف للأموات الذين عبروا إلى المكان الأقصى بتسلسل المراحل بعد الوفاة المتصلة بليل جهنم وغسق المطهر ونور الجنة. وكان القدماء يميزون كذلك ثلاثية أوضاع النفوس الميتة والنوم دون حلم «إيريب Erèbe» والنكالات «لتارتار Tartare» والإقامة الرخية «للشانزليزيين Champs Elyséens». واسم سيد هذا القطاع المظلم هو «هاديس Hadès» ويعني باليونانية غير المرئي. وترجع تسميته هذه إلى القلنسوة الحديد التي صنعها «السيكلوب Cyclopes»⁽¹⁾ على شكل قبعة فريجية شبيهة بتلك التي تغطي رؤوس العبيد المحررين. والاختفائية وهي أسمى درجات الحرية التي كان الإله نفسه يطمح دائماً إلى التدثر بها حكمة وتعقلاً. وكان الرومان يعكسون المعنى احتراماً ويسمونه «بلوتون Pluton» أي الثري، إشتاداً إلى الكنوز المخبأة والمعادن النادرة والأحجار الكريمة المتركمة في الأعماق الأرضية، رمزاً لتشابه حراسها. ومدخل هذا العرين الجهنمي يفتح من مكانين مباحين وممنوعين بسبب الروائح المتعفنة وطاعون المستنقعات: بحيرة آفيرن وجبل «تينار» ومستنقع «أشيرون Achéron» التي كان الدخول إليها محمياً بالجن وبكلب «سيرير Cerbère» ذي الثلاثة رؤوس. وهيكتات الثلاثية «Hécate» إلهة الموت كانت هي نفسها مصحوبة ودائماً برهط من الكلاب وقطيع من الأفراس.

ويمكن أن ندهش لعلمنا أن الكلاب والخيول كانت مشاركة لحياة الإنسان بعد الموت إذا لم نفكر إلا بأن هذه الحيوانات إذ أصبحت مرافقة للأرواح، ظلت في عملها كرفاق مخلصين للأموات: كان يضحى بها على المحرقات المأتمية. وتقرأ في إلياذة «هوميروس Homère» أن «أشيل Achille» يحرق أربعة أفراس أصيلة على محرقة «فطرقل Patrocle».

والخيول بطاعتها لأصحابها ترمز إلى الخضوع للقدر. بهذا كان المؤيدون لأسرار «دبونيسوس» يعتبرون مطايا الآلهة. بل كان بعض بني الإنسان يصبحون جياداً

(1) هذه الأسماء كلها أسماء إلهات أسطورية والسيكلوب هم عمالقة أسطوريون بعين واحدة.

على غرار «السنتور Centaures» والسيلينيين. وكان المؤمنون الطاويون يسمون أنفسهم «باعة الخيول» أي المخلصين المبشرين بالإرادة السماوية.

والعالم تحت أرضي القديم كانت تسكنه مجموعة من الآلهة الجهنمية حيث وجد المختصون بالتحليل النفسي تسلية في التحقق من رموز حالاتنا الدنيا: الآلام والبغضاء، والعدوانية والبخل، الخوف وفقد الأمل - اليأس -، مجسدة في عدد من الكائنات الشيطانية. كنا نلتقي أولاً بالقوى المعاصرة لأولى الانقلابات الكونية تغلبت عليها عقلية «زيوس» والطيطان والسيكلوب الذين حاربوا من قبل العمالقة وأودعوا في حراسة «الهيكاتونشير Hecatonchires» ذوي المائة يد. وبعد ذلك جاء الشياطين الذين يألفون المواقد والأعتاب ثم الغيلان الأكثر عمومية كالنهم الصيني «Glouton» المفتوح الفم بشكل دائم الذي ليس لديه فك أسفل لذا كان يبتلع بشكل دائم الوقت والموجودات معاً.

وكذلك كان عقاريت النار سادة استخراج المعادن الذي يعود تاريخه إلى بداية وجود الإنسان لأن عمل المصهر كان في بادئ الأمر طقسياً، سماوياً بقدر ما كان شتونياً (جهنمياً). وهذا الازدواج كان ملحوظاً باسم الحديد نفسه «سيدروس Sideros» الذي يأتي من اسم النجمة في اللغة اللاتينية «سيدس Sidus» ما دام الحديد المصنوع الأول قام به المصريون الذين استخلصوه في بادئ الأمر من النيازك.

في التقليد التوراتي كان أول عامل «توبال قاين Tubal-caïn» وفي العربية، اسم قاين⁽¹⁾ يعني حداداً. وفي التقليد الهندوسي كان أول حداد هو الإله الفيدي من كتب الفيदा - «براهمانسباتي Brahmanaspati» الذي طرّق أو بالأحرى «لَحَم» العالم. لم يكن الخالق بل الصانع المنفذ. وفي المصاهر «التحت أرضية» كان سادة النار هيفايستوس Hephaïstos والعمالقة «Cyclopes» والأقزام الحدادون يصنعون الأسلحة والخوذات والسيوف والتروس للأبطال الممدّنين وكانت تستعمل من قبل رهبان إلهة

(1) الكلمة باللغة العربية قَيْن وتعني حدّاد.

لخشب «سييل Cybèle» من جبل «إيدا Ida» في الساحات الصغيرة في الرقصات
لمسلحة وفقاً لأسرار «ساموتراس»⁽¹⁾.

كانت تلك الأسلحة رموزاً روحية. فالترس الذي كان الرب يؤمن اختفائه
وراءه قائم في ظاهر العالم نفسه. هكذا مثل الرب هيباستس على ترس «آشيل» رسماً
نكل السراب الكوني. وحتى «بيرسيه Parsée» ابن زيوس الذي هزم «Méduse»
ميدوز⁽²⁾ بمواجهتها بصورته معكوسة على ترس مصقول كالمرآة.

والسيف، السلاح الهجومى للآلهة وصورة البرق، كان يمثل سلطته الوقتية
كالأمراء الذين يفرضون السلم والعدل، إضافة إلى سلطته الروحية التي كانت ممثلة
بالشعر والكلام الإيقاعي. لذا يمكن رؤية سيف ذي حدين يخرج من فم يهوى Yahve
على الزخرفات الرومانية. وهذا السيف هو أيضاً البرق الذي يضئ الحقيقة ويقطع
ظلمات الجهل وتشابك عقده.

كانت هذه الأسلحة تمتلك كما رأينا قدرة مزدوجة سماوية وأرضية، الأمر الذي
يسمح بأن نرى في المعادن العناصر السماوية للعالم «التحت أرضي»، وفي
الكواكب معادن السماء، ما يؤدي إلى تطابق من المهم أن نورد بيانه فيما يلي:
الرصاص والجمشت لزحل والياقوت الأزرق - اللازورد - والقصدير للمشتري،
الحديد والياقوت الأحمر للمريخ، الذهب والماس للشمس، النحاس والزمرد للزهرة،
الزئبق والعقيق الأحمر لعطارد، الفضة وحجر القمر للقمر.

والمعادن المكونة بتأثير هذه الكواكب في أحضان الأرض الأم كانت تعتبر
مُضغاً تنمو بنوعها في الرحم الأرضي حتى كمال الذهب، هذا النور المعدني الذي
يمثل المعرفة نفسها. وهذه الرمزية للمعادن تفسر رمزية الخيمياوية «الكيمياء القديمة»
التي هي مرتبطة بها بتلاصق كما تعبر عن ذلك الصفة الثلاثية للإمبراطور الصيني

(1) Samothrace جزيرة يونانية في بحر إيجه.

(2) ميدوز واحدة من ثلاثة مسوخ كانت نظرتها قاتلة فأطاح بيرسيه بها وقطع رأسها فخلق
بيجاز Pegase من دمها.

موانع-تي الذي كان سيد الحدادين والخمادين والطاوين. كانت الأرض بوقفة، نوراً طبيعياً وذوبان المعادن الذي كان ينجم من التنور كان وسيلة للوصول إلى الخلود. وكل مصهر يبقى على اتصال بالعفاريات «التحارضيين» الذين هم في الوقت نفسه حراس الكنوز المنجوبة الروحية منها والزمنية. ومختلف مراحل الوصول إلى المعرفة ومراحل تصنيع الذهب كانت مترامنة.

والعالم المتروك لتطوره الطبيعي يميل إلى ترسيخ انحلاله يتصل بالعصور التقليدية الأربعة: عصور الذهب، الفضة، البرونز والحديد. وهذا التراجع الروحي يتفق في الإيقاع الكوني العالمي مع مرحلة تكاثف أرضي سيخلفها زمنياً تطوير إلى ارتقاء معوض، وهاتان المرحلتان هما تعاقبتان ومتزامنتان بآن واحد تبعاً لمبدأ المشايخين: «انحلال الجسم هو تركيز الروح».

وهذا التعاقب يتوضح في قدرة «حلّ وفكّ» في كل عمل يتعلق بسلطة روحية. و«العمل الأعظم» الخيميائي يقوم على تسريع إيقاع هذه السلسلة الطبيعية للوصول إلى المرحلة الثانية على غرار كل عملية مسارية، وهي عملية العودة إلى الأصل للوصول إلى «حلّ» محرر. ومراحل هذا «العمل العظيم» تبدأ من العمل في الأبيض من الأسرار الصغيرة إلى العمل في الأحمر من الأسرار العظمى التي تدعى كذلك تفتح زهرة الذهب أو الخروج من المضغة أو الحصول على الأوضاع المتتالية للإنسان: الحقيقية، الأولية، الفائقة والكامل.

المادة الأولية، البيضة الفلسفية، محبوسة في التنور كما هي حال بيضة العالم المحبوسة في كهف الكون. وتحويلها هو مهمة القائم بالعمل نفسه. وعلى مستوى الرمزية التحارضية يكون العاملون هم الحدادين، حراس الكنوز المنجوبة ممثلين بالعنقاوات والتنانين والحيات التي هي ملهمة وسفّاحة بآن واحد، والمتاعب التي تسببها هي اختبارات العنقاوات أسود بمنحة مثل التين ذي الذيل الأفعوي وهي تجمع الهواء والنار والأرض.

وفي التقليد الصيني، المراحل الست للعمل الأعظم كانت مرمزة بأوضاع التنين الستة: «التنين المنحياً (الانحلال)، التنين في الحقول (التحمر)، التنين المرئي (التختر)، التنين القافز (الحل)، التنين الطائر (التقطير)، والتنين المحلق (التصعيد).

والأفعى، السلف الأسطوري والمحضر، هي رمز شامل. إنها تنبعث من الظل وتمثل ازدواجية كل مظهر. وهي مؤذية تحت مظهر «تيفون Typhon» و«بيتون Python». لكنها التعقل كما تبينه الكلمة اليونانية «أوفيس Ophis»، وهي جناس تصحيفي تختلف بحرف واحد عن الحكمة «صوفيا Sophia». وهي تجمع تيارين صاعداً وهابطاً للطاقة العالمية. وفي الهند كلمة «ازوراس» أو الجبارون تأخذ مظهر الأفاعي كما تأخذ ملائكة «ديفاشس Devas» شكل الطيور. ولارتباطها بالتعددية المشتقة من طبيعتها المزدوجة، تقوم الأفاعي بظاهرة «الإغراء» التوراتية بالجنة بدعوة الرجل إلى تذوق ثمرة شجرة معرفة الخير والشر أي المعرفة الثنائية للأشياء المحتملة تبعده عن الوحدة الأصلية وتمنعه من الاقتراب من ثمرة شجرة الحياة. والتواءات الحية حول هذه الشجرة ترمز إلى المسيرات غير المحددة والمتجددة للوجود كما كانت تفعله حول ملكة ليديا «أومفالوس» وحول شارة الطيابة الهرمسية. والسفر التحارضي الذي تتم خلاله اللقاءات مع الغيلان الخرافية كان يمثل تجارب سيرورة مسارية وهو في الواقع معرفة الذات وتخلُّ عن الفضيلات النفسانية الكابته، «تعرية المعادن» و«حلّ اللحاءات» وهي مطابقة للنقش المخطوط على باب معبد «دلفيس Delphes»: «أعرف نفسك بنفسك».

ومعبد دلفيس بناه، كما تقول الأسطورة، ترفونيسوس، ملك البيوسى والمهندس المعماري. والكهف الذي دفن فيه فيما بعد في غابة «ليباديه Lebadée» المقدسة أصبح مقاماً نبوياً حيث الطقوس الليلية المفروضة على طالبي المشورة، الفحص والتطهير والصوم والتضحية والهبوط إلى لجة والنوم السباتي، تتطابق مع الاختبارات للمسارات الدينية «إيلوزيس وديونيسوس Eleusis-Dionysos».

وعندما هجرت صورة مركز العالم قمة الجبل لتدخل في أحشائه، أصبح العالم
لسماوي العالم التحارضي. أصبح مكانُ القبور مكانَ البعث والكهفُ كالمحفل
لماسوني، أصبح صورة للعالم. إنه مبحث طوره أفلاطون في أسطورة شهيرة. وفي
لتفسير التوراتي «يوم الخلود» هو كذلك موضع تحارضي. فالدخول إلى الكهف هو
ذن العودة إلى الأصل. لقد ولد «لاو-تسو Lao-tseu» فيه ورسالة المسيح تبدأ هي
الأخرى من الكهف الذي ولد فيه.

الفصل الثالث

الطقوس والأساطير

الطقس يدل في الأصل على

ما تم تحقيقه وفقاً للنظام

ر. جينون

أولاً - الطقوس

يمكن تعريف الطقس بأنه سلسلة من الحركات تستجيب للاحتياجات الجوهرية، حركات يجب تنفيذها وفقاً لتناسق معين. وتبعاً لاشتقاق هذه الكلمة من السنسكريتيه، فهي تعني ما هو مطابق للنظام (ريتا rita). وأصلها يضيع في ليل الأزمنة ويبقى مجهولاً حتى من قبل الذين يمارسونه رغم أنهم احتفظوا به وفقاً للذاكرة متوارثة.

لا يوجد شيء مجاني في مثل هذه الاحتفالات. إنها حركات بسيطة أصبحت تصرفات تربية مؤلفة من أناشيد وموسيقى وكلمات تبرز مواقف طبيعية كانت في بادئ الأمر انعكاسات صادرة غريزياً في مناسبات مماثلة تستجيب للضرورات نفسها. إنها حركات بدئية نقوم بها كل يوم ترافق أساليبنا في الحياة، السير، وارتداء الملابس، وإظهار عطفنا أو عدوانيتنا.

وطقوس الاغتسال وتناول الطعام والحب والموت تقس اللحظات الرئيسية للوجود، ميلاد طفل، واغتسال العماد والزواج الذي كان يتطلب خطف المخطوبة،

لمآتم مع دفن المتوفى كبذرة مخصصة للعودة إلى الحياة وأخيراً المادية التي تنهي أي احتفال حقيقي، والتي تقلس الرمزية المغذية لسر القربان المقدس.

لكل مهنة طقسها: والزراعة القديمة كانت تخضع لقواعد دينية كالهندسة، وبصورة خاصة هندسة المعابد التي حفظت آثارها مع التوجيه والتكريس والتعدين الذي رأينا رمزيته تتحول إلى الخيماء.

وعند فجر العصور القديمة لم يكن هناك فرق بين حركة دنيوية وحركة مقدسة لأن المضممار الدنيوي لم يكن موجوداً. ففي مدينة تقليدية كل فعل كان كهنوياً. لم يكن هناك شيء مستبعد عن المقدس وبالتالي لم يكن هناك ما هو غير نقي لأن هذا التعبير عن المندس ليس إلا سوء تعريف ذي طبيعة إيجابية دائماً للطقوس الموثوقة كسوء تعريف طقس سلمي وهو بالتالي عدم فهم إزدواجيتهما الأساسية.

كل انشغال يومي كان طقسياً. ونحن أنفسنا رجال اليوم، عندما نرفع قبعتنا احتراماً أو نحني رأسنا تقديراً ونمد يدنا بأدب فإننا نكرر طقساً كان مقدساً من قبل فبات دنيوياً، رمزاً أصبح مجرد ممارسة. لكنه يكون خطيراً علينا غالباً على أمننا أو بكل بساطة على سمعتنا إذا لم نمارسه. وكما جاء في نصّ كونفوشيوسي: كانت الطقوس تسمح بجمع الإرادات وتوجيه الأفعال وتنسيق النفوس وبالوصول إلى توازن عام للقوى الفيزيائية والاجتماعية. وهو ما يمكن أن يجعل كونفوشيوس⁽¹⁾ كفيثاغور⁽²⁾ صيني. ففي الصين القديمة كان تعديل أي طقس مهما بلغ من بساطة يعتبر جريمة ويعاقب بشدة. وهذا التناغم الجماعي لم يكن إلا تطبيقاً لقانون الاتصالات الحاذقة التي تربط المستويات المختلفة للكائن البشري. ولو طلبنا من العلم أن يجعل هذه الحركات مشروعة فإنه سيدلل بسهولة على أن أهميتها تتوقف على الرباط النفسي والجسدي «جسد-نفس» الذي يجمعهما مع روح المحتفي كما يبناه بإسهاب في

(1) فيلسوف صيني 551-479 ق.م. كانت فلسفته أخلاقية وسياسية وكان همه الأول إحلال النظام في الدولة التي يؤلفها البشر الذين يعيشون بالتوافق مع الفضيلة.

(2) Pythagore فيثاغور رياضي يوناني 570-480 ق.م. سبق شرح أفكاره.

لجزء الأول من هذه الدراسة. وبعض الطقوس الدينية المسماة أسراراً مقدسة سمحت وتسمح بنقل تأثير روحي يسر تحقيقاً ميتافيزيقياً.

انتهى الأمر بالطقوس إلى تحديد دائرة محكمة أي مقدسة في الحضارات التي علمت بمجموع مجاهلها. وعليه، أن نجعل ما نفعله وما نحن عليه مقدساً سيُدعى «تضحية»، أي أن نقوم بتضحية «بتكريس» هذه الأفعال للقدرات غير المرئية منتظرين بالمقابل عوناً وحماية حتى لو كانت هذه القدرات تختبئ تحت ظاهرة قانون الأعداد الكبيرة أو حساب الاحتمالات.

كان لهذا التضرع الصامت أشكالاً لا تحصى منذ التضحيات البشرية للأزتيك أو للمصريين خلال عصور السلالات الأولى وحتى ضحايا الحروب العظمى. وأسرار القرايين المسيحية السبعة أصبحت مجرد رموز تحدد الصلوات المصاحبة لها معانيها. وهذا المفهوم للتضحية الذي استقر عليه تقليدهم لقي لدى الأريين الفيديين تطوراً خارقاً غير مألوف. ويطلعنا «آ. دانييلو A. Danielou» على أن التضحية بالحصان في الهند التي دامت سنين طويلة استخدمت ألوف الرهبان وابتلعت عائد ممالك عظيمة.

هذا النشاط الطقسي يندمج في مراحل السنة والأشهر والأيام خاضعاً للإيقاعات الأساسية التي تحكم الحياة والإيقاعات القلبية للتنفس. فإيقاع القدم التي تضرب الأرض أوجدت الرقص الذي يرافق الغناء والموسيقى بشكل عام. إنه حركة أولية أساسية كانت تبرزها لدى الصينيين وزنوج أفريقيا رقصات الدب ولدى الهنود الأمريكيين رقصات الثور الأمريكي «البيسون» والنسر والنسر الأمريكي والكندور والأفعى.

وتقدم لنا الهند في هذا المجال الحالة الأكثر تحضيراً لهذا النبض الحيوي مع صورة «شيفا Shiva» إله النشاط والمرح الكوني الذي يظهر شعبياً في صورة ملك الرقص (الناتاراجا Natarâja). أنه يعبر عن حيوية الحياة بصورة مواجهة مستمرة لقوتين متعارضتين. يد الرب اليمنى تحمل طبلًا يزن إيقاع رقصته. ويده اليسرى تعرض في راحتها لساناً من النار. إنه يرقص على الجسم المسحوق لقزم يمثل الإنسان الغارق في الجهل. وهالة من اللهب تحيط به وتمثل حيوية الطبيعة التي لا تنضب وفي الوقت نفسه نور المعرفة.

وعلى الموضوع نفسه وعلى مستوى أكثر إنسانية، تطور الرقصات الهندوس التعبير عن المشاعر الثمانية بفنهن: الحب، الرأفة، التعجب، الضحك، الغضب، الشجاعة، الرعب والسلم، بفضل خمسين حركة من أيديهن «مودراس» اختتام الخواتم Mudras والأوضاع المائة والخمسة والعشرين لأجسادهن.

والرقصات المقدسة تسمح بإدخالنا إلى كواليس المسرح اليوناني حيث كانت «الكوريا Chorea» تهيمن، وهي الإيقاعية التي تجمع الشعر والموسيقى والرقص وتملك في حياة «الهيلينات»⁽¹⁾ القيمة أكبر من أهمية الفنون التشكيلية. فالأسرار الأورفية⁽²⁾ والديونيسييه تحوي رقصات على غرار أسرارنا في العصر الوسيط. وأعلن أفلاطون في حينه أنه يتوجب على شبابنا لا أن يرقصوا بكمال بل أن يرقصوا الكمال نفسه.

وفي اليابان نجد مثلاً مماثلاً من رمزية المسرح مع «النو Nô» الذي يرافق الممثلون أوضاعهم الكهنوتية بنص منغم مرتل. وفي كل فصل يمثلون خمسة «نو nô» فنرى على المسرح حاجاً أو مسافراً يصل إلى مكان مشهور بأسطورة قديمة يرويها، على شكل مقدمة، فلاح من المنطقة. ثم تبدو شخصيات «الدراما» على شكل أرواح أو أشباح ممثلة بسكان القرية. وبعض أولئك الممثلين يضعون أقنعة ثم يتنقلون جميعاً ببطء إيقاعي. وإلى اليسار عشرة ممثلين يشكلون الجوقة وإلى اليمين مزار وطبلان ضيقان ودف تشكّل الفرقة الموسيقية.

وبتبعنا لطريق الإيقاع هذا الذي قادنا إلى الرقص والموسيقى والمسرح نلاقي الأعياد الطقسية التي تقام في مطلع العام وفي نهايته والتي تهدف إلى التجديد كهدف جوهرى. إنه يرمز بصورة عامة إلى إطفاء النار وإعادة إشعالها، وهو ليس طقساً باطلاً

(1) يقصد هنا الملكات والإلهات اللواتي يحملن هذا الاسم من أمثال هيلين ابنة الملكة ليديا وأخت كاستور والقديسة هيلين أم الإمبراطور قسطنطين وهيلين بطلة الإلياذة إلخ...

(2) الأورفية متعلقة بـ: «Orphée» أمير وشاعر وموسيقى ومغن كانت الحيوانات تؤخذ بغنائها وديونيس أو ديونيسيوس مرتبط بياخوس إله الخمر.

لأدمننا لا نزال نستخدم النيران في عيد «القديس يوحنا» وما دام هذا الطقس قائماً
توقيت معين تحت «قوس النجمة» أمام قبر الجندي المجهول. وهذا يؤكد أن هناك
طقوساً مدنية هي تقليد حديث للطقوس الدينية.

وثمة نشاطات تبدو لنا اليوم مجرد ألعاب كانت طقوساً من قبل كالشطرنج
والتاروت⁽¹⁾ والبيلوت والأرجوحة، دون أن ننسى أقنعة الكرنفال التي، كأعياد زحل
القديمة أو أعياد ديونيسوس الأولية تسمح بتحديد تجاوزات ممنوعة في أوقات أخرى
لمدة أيام محدودة أو أسابيع.

كل الشعوب مارست هذه الطقوس بشكل أو بآخر وهي تقوم على ضرورة
التحام اجتماعي. لكن هناك طقوساً غير متوقعة رغم أنها تبدو لنا ممارسة كالأولى في
رغباتنا اليومية كتدخين الغليون وشرب فنجان شاي.

فعند السيوكس مثلاً «Sioux» المحصورين في محميات داكوتا، يشكل الغليون
المقدس، «الكالوميه Calumet»⁽²⁾ الهابط من السماء، والذي يرتفع دخانه كالبخور،
عندهم، كما يقول «شون Schuon»، مبدأ ديني وأداة طقسية تركز عليها الحياة
الروحية للهنود الحمر. وطقسية الغليون الكاملة تضم ثلاث مراحل بدءاً من التطهير
بالدخان فالانتشار في أبعاد العالم ورمزية التضحية بالنار.

في اليابان، حفل الشاي صادر عن طقس يقيمه الرهبان السمتيون الذي اعتادوا
شرب شايبهم في كأس أمام صورة مؤسسهم «بوديدارما Bodhidharma». وكل ما هو
ضروري لهذا الطقس بدءاً من بيت الشاي فالحديقة التي تحيط به والممر الذي يؤدي
إليه، يعطي انطباعاً بالبساطة والصفاء والنقاء. في ضوء ملطّف محاط بالصمت حيث
يُمحى من الجدران العارية الصوت الرزين، لا يسمح إلا خريز الماء الذي يغني في

(1) ورق لعب أطول من الورق العادي وعليه تصاوير مختلفة.

(2) غليون هندي طويل الأنبوب والسيوكس كما مرّ بنا مجموعة شعوب في أمريكا الشمالية
تتكلم لغات متقاربة.

المغلاة حيث رتبت قطع من الحديد تبدو طبطبتها المكتومة كأنها قادمة من شلال أو من بحر بعيد.

واليابانيون المخلصون للبوذية هم أنفسهم الذين يمارسون الرماية بالقوس. فالقوس الذي خَلَفَ الدبوس الخشبي القاسي وبلطة الحجر والمقلع، كان السلاح الأول والمحدد بعض الشيء لإنسان ما قبل التاريخ. والتحكم في فنون الأسلحة الذي يشترك التحكم بالذات، واستخدام القوس أصبح في اليابان مدرسة للتركيز الروحي. على القواس أن يصبح على براعة كافية وتحرر معقول ليشد وتر القوس بشكل طبيعي كما يتنفس وأن يطلق السهم بشكل عفوي مناسب ليصيب الهدف وهو مغمض العينين. ولما كان السهم هو القواس والهدف هو الله فإن إصابته لا تتم إلا بفضل تحلل مطلق من الروابط الزمنية.

والرماية بالقوس تقودنا إلى طقوس الصيد القديمة وإلى الحرب التي أصبحت لدى الفرسان طقوس مسارات دينية. ومن الأفضل أن نتوقف أمام تطبيقين معبرين عن المعنى العام لهذه العادات: الحج والأسفار اللذان لهما، فيما بينهما علاقات مؤكدة كعلاقاتهما بالمرسح. ومن الصعب على سبيل المثال تحديد الأسباب التي أحدثت الحروب الصليبية، الإيمان أو الحرب يتلازمان في عقلية الفروسية. أما عن المرسح فإنه ليس رمزاً كاملاً لحياة الإنسان فحسب بل هو مرتبط كذلك بالسفر من حيث أصله الذي بدأ بأن يكون متنقلاً لدى كل الشعوب.

وفي كثير من التقاليد، تعتبر المراحل المسارية كمراحل سفر أو إبحار. حالة التيه هذه هي حالة امتحان يمكن لمغامراتها هذه، كمغارات «أوليس» في «الأوديسا» والبطل الصيني «ل: سي-يو-كي Si-Yeou-Ki» أن تُعتبر كإشهار للأسرار الصغيرة.

ثم إن هناك طقساً أخيراً لعله الأكثر أهمية رغم أنه ليس عادياً أن ننظر إليه من هذه الزاوية، إنه الكتابة. إنها رمز اللغة المنطوقة التي هي نفسها رمزية. إنها إذن رمز من الدرجة الثانية. ولكن بينما كان الإنسان يتكلم منذ أن كان، فإنه لم يكتب إلا منذ ثلاثين ألف سنة عبرت الكتابة خلالها مراحل متوالية من الرسم قبل التاريخي الذي

كان ينقل رسائل في «حلقات مرسومة» والرموز الفكرية المصرية والصينية التي تنقل الفكرة فقط وحتى الألفبائات المقطعية والحرفية للفينيقين التي كانت تنقل الكلمة والصوت دون أن يكون لأحدهما تفضيل على الآخر.

الرموز الفكرية تكون ما يمكن تسميته الكتابة المطلقة لأنها مستقلة عن اللغة المنطوقة. إنها تشكل لغة تركيبية بكفاءة تعتمد على النظر وحده كالأرقام التي تدعى عربية والتي يمكن لكل الشعوب إدراكها رغم أنها لا تُسمى بالاسم ذاته.

مورست الكتابة في البدء من قبل الرهبان وأمناء سر الملوك القدامى فكانت خلال أمد طويل مستودعاً مقدساً محمياً كصدى لغة أساسية كانت أحرفها على شكل كهنوتي هي الأخرى ما دامت مقررّة لنقل فكرة مصدرها الرئيسي الدنيا نفسها. كان هذا العالم معتبراً ككتاب يرفع النقاب عن رسالة سماوية. والكتابات التقليدية لم تكن إلا ترجمات في لغة مرئية. والواقع كما يقول لنا «رينيه جينون Guénon» أن «علم الأحرف» كان المعرفة بكل الأشياء والخط الذي كان ينتج تطور النشوء الكوني، طقس متقدم لتعليم الكتاب وكل رهبان العصر.

ثانياً - الأساطير

أحدث انحلال الرموز غموضاً يسود الميثولوجيا اليونانية التي عُريت اليوم من كل قيمة ميتافيزيقية. لقد حولت الأساطير إلى مجرد تخيلات اعترف بها اليونان أنفسهم منذ خمسة وعشرين قرناً الأمر الذي يصعب تحرير الطقوس الأساسية التي ضاعت في فيض من الأحداث الطارئة.

خلال العصور كانت الطبيعة المسارية لهذه القصص قد اختلفت تدريجياً وراء ظاهرها الشعري أو الروائي بل وأصبح في بعض الأحيان مؤذياً بسبب قلبه لأن تساوي الحدين الكلي للرموز المقدسة ظهر مجدداً في الأساطير. والقول إن المقدس لا يعني المعجز إلا إذا كانت كلمة معجزة بالنسبة إلينا تعني الواقعة، فإن الأمر يصبح أكثر

سهولة. ويقول لاينيتز: «عندما يكون المدهش كلياً، فإنه يغني ويمتص ما فيه من خصوصية لأنه يعللها... والطبيعة كلها مليئة بالمعجزات لكنها معجزات مُدرّكة».

في هذا المنظور، جوهرية الأسطورة هي «عدم ترتيب المصادر» الذي اعترف به «كانت Kant»⁽¹⁾، «إظهار المطلق» برأي «هيجل Hegel»⁽²⁾ أو «التركيب المنطقي التحتي والشائع على كل المستويات» كما يقول «شترأوس Claude Levi-Strauss»⁽³⁾ للتكلم بلغة اليوم، الأمر الذي يفسر تعدد السمعي ومضاعفة استعمالاتها. فالأسطورة والطقس هي في الواقع التعابير المكملة لقدر واحد الطقس فيها الصورة الطقسية والأسطورة تحقيقها خلال مراحل تاريخ عاشه الإنسان.

وتطوير حقيقة دينية إلى أسطورة ليس أقصوصة بقدر ما ترجع كلمة أقصوصة أو حكاية إلى جذر يعني كلمة «fabula» بينما ترجع كلمة أسطورة إلى جذر يعني «أبكم وصامت» - «موتوس mutus». وفكرة الصمت هذه ترتبط بالأشياء التي لا يمكن التعبير عنها بطبيعتها إلا بالرموز. فكلمة «أسطورة وسر» نابعتان من إيديولوجية باطنية واحدة وطبيعتهما ناجمة عن أصلية وضرورة واحدة.

وهكذا فإن الأهداف التي توحى بها الأساطير هي نماذج حاضرة في خلفية مشهد كذكرى سلفية نسيها حتى أولئك الذين كابدوا تكرارها. وكل نشاط إنساني جوهري يستجيب لضرورات يصبح على هذا النحو موضوعياً وتبادلياً. والأسطورة

(1) إما نوبل كانت - فيلسوف الماني 1724-1804 فلسفته المتأثرة بـ: هوم Hume ولاينيتز وروسو تحاول الرد على الأسئلة: «ماذا أستطيع أن أعرف؟ ماذا عليّ أن أفعل؟ ماذا أستطيع أن آمل؟».

(2) فريدريك هيجل فيلسوف الماني 1770-1831 تصور فلسفة الإنسان والروح في مبدأ واحد وهو صاحب مبدأ الجدلية «ديالكتيك» وله عدد من المؤلفات.

(3) عالم لاهوت ومفسر للكتاب المقدس الماني 1808-1874 باسم دافيد فريدريك شترأوس، وآخر جوهان المثاني وهو نمساوي مؤلف موسيقي والثالث ريتشارد مدير جوقة موسيقية ولم أجد من يحمل هذا اللقب غيرهم بين القدماء.

تظهر كمثل منطقي لفعل أو رغبة روحية تسمح أهدافها المتبعة بالتمييز بين ثلاثة اتجاهات للتحقيق الميتافيزيقي هي الفعل والحب والمعرفة.

وهذه الوسائل، في ظاهرها التاريخي، يمكنها أن تتخذ شكل البطل الذي يبحث عن الثراء والمجد والقداسة. ويمكن للقائمين بالعمل أن يتغيروا لكن الطرق تبقى لأننا نعلم أن المواقف لا تتجاوز في الوجود عدداً قليلاً من الموضوعات الممكنة.

وفي كل الحالات تهيمن على منطق الأساطير عقلية قديمة ملحة في وضع «المتحضرين» وشعورهم وهم سعداء باستطاعتهم طرح آمالهم ومخاوفهم وشهواتهم في شخصية بطل يدعى «كريزوس Cresus» أو الإسكندر أو بوذا. وإذا كان بطل كل شعيرة قابلاً للتعاوض فإن الأسطورة تفرض في كل مرة مثالبها المختفية غالباً تحت الرومنسية «الروائية».

وفي هذا العرض الفائت للانتصارات والمآسي، لا تنهل أية قصة أسطورية في مجموعها كما يمكننا لمسها بتحويل بعض الأساطير الشهيرة إلى معناها الأصلي.

لنتوقف على سبيل المثال أمام أسطورتَي «بسيشي Psychée» و«أورفيه Orphée». إذا حولناهما إلى الجوهر تروي لنا أسطورة بسيشي قصة أميرة يزورها كل ليلة عاشق سرّي غامض في سريرها يمنعها من رؤيته. وأخوات بسيشي أقنعنها بدافع الغيرة بأن حبيبها مسيخ مشوه. ولكي تتأكد بسيشي من ذلك، أشعلت قنديلها ذات ليلة فسقطت نقطة زيت على المجهول الذي كان «ايروس Eros» فأيقظته وسببت في اختفائه. وقصة «أورفيه» مماثلة. لقد فقد زوجته «أوريديس» فذهب يطلبها من «بلوتون Pluton»⁽¹⁾ إله الجحيم، فوافق هذا على إعادتها إليه. لكنه لا يستطيع رؤيتها قبل أن يعود إلى النور. وفي اللحظة التي كاد «أورفيه» أن يستعيد زوجته، التفت فلم ير إلا ظلاً يضمنحل في غمرة ضوء النهار.

(1) المعروف أن بلوتون كوكب بعيد عن كوكب نبتون اكتشف عام 1930 ويعد عن الأرض وقطره 2200 كم.

تجري القصتان في جو الظلام الظليل نفسه. عشيق «بسيشيه» وزوجة «أورفيه» شبهان ليليان يختفيان عادة، عند أول صيحة ديك، أول شعاع شمس. إنها كيانات وقتية لحالات لطيفة أو كما كان يقوله «بندار Pindare»⁽¹⁾ رؤى أحلام تختفي عندما يظن المرء حتماً الإمساك بها.

ولا ريب أن هناك مجالاً لأخذ مجموعة من التفاصيل بعين الاعتبار لأنها تثرى «أو تحول» الموضوع الذي هو الغرام. وتبعاً للاسم، «بسيشيه» هي صورة روح تبحث عن الحب الأرضي. «وأورفيه» المغامر القديم المكسح الذي انتزع «الجزء الذهبية Toison d'or» المطلع العالي المستوى ونشيدته يسحر عالماً أسرّ موسيقاه. لكن هذا كله يجب ألا يخفي تسلسل الأسطورتين اللتين ترويان تحرراً نفسياً.

ويمكن لعلم النفس أن يحل ظاهرياً محل شعار مساري. فالعواطف الشخصية تبدو غالباً خلفاً للحكمة العليا لأسطورة قائمة على البحث عن روحية قديمة. ويمكن أن تختلف الأسباب لكن الحبكة الرئيسية تبقى حتى ولو بدت الأسطورة تستبقي البطل في حالة غير محددة.

إن أساطير سليمان وسميراميس هي أحداث مثالية. سيرتهما تروي غزو السلطة الدنيوية لشخصيتين خلاتين للمدن بدأتا ملكهما بجرمتين شعائريتين على غرار «قايين» مؤسس المدنية بامتياز الذي قتل أخاه «هابيل» «Abel» و«رومولوس Romulus» مؤسس روما الذي قتل «ريموس Remus». بدأ ملك سليمان بقتله أخاه البكر «أدونياه Adoniah» ومُلك سميراميس بقتلها زوجها الملك «نينوس Ninos» الأمر الذي يسمح لهما بتولي الملك وتحسين الأبنية التي جعلتهما شخصيتين أسطورتين، هيكل أورشليم وجنائن بابل. لكن نهايتهما تختلف لأن الصورة التاريخية للقصّة لا تدخل في الحالتين من مدخل واحد، فسليمان يقع في عبادة الأوثان وموته فقط جنبه أن يكون شاهداً على خلاف الأسباط العشرة. أما عن سميراميس، فإن تحليلها

(1) شاعر يوناني 518-438 ق.م. من أسرة أرستقراطية.

كامل. وإذا كانت جيوشها المهزومة في «الأندوس Indus» قد أجبرتها على التخلي عن العرش لابنها، فإنها لم تمت بل اختفت في السماء متحولة إلى حمامة.

وقصة حقيقية كحرب «طروادة Troie» تضم مشاهد حقيقية وأخرى رمزية تماماً. بدأ كل شيء بالاغتصاب الخارجي والطقسي لهيلانة من قبل باريس «Pâris» وهو ما سبب الحرب. إن عولس، «Ulysse» الذي كان من قبل أحد الطامحين إلى حب هيلانة، أصبح، بالرغم من حكمته ورغبته في البقاء خارج حلبة الصراع. وأصبح البطل النهائي لحرب ما أرادها باعتبار أنه لم يكن بطلاً فعلياً فيها.

والموضوع الجوهرى لأسطورة عولس التي رواها هوميروس يقوم على أساس عودة ملك «إيتاكا Ithaque» إلى موطنه في رحلته البحرية. إنها حج إلى المصادر. وهذه العودة تتمثل كنتيجة لتجارب مساريه لاقى خلالها على التوالي عوالم مغلقة في الشمال، بدءاً من جزيرة «اللولتو فاج Lotophages» أكلة زهور اللوتس، هذه الزهرة المقدسة من جانب الآريين، ثم أرض السيكلوب «Cyclopes» أبطال معارك قبل-كونية، ثم أرض «أيول Eole» ملك رياح الفضاء الوسيط، فأرض «الليستريجونون Lestrygons» وصخرة اليمامات التي تحوم فوق المياه الأولية وبعدها جزيرة «سيرسيه Circé» التي تحول شخصية رفاق «عولوس» إلى خنازير لتبعثهم أكثر شباباً وجمالاً/ ثم شاطئ «سيميرا Cimérie» حيث يفتح المدخل إلى الجحيم المظلل بأشجار الصفصاف.

ويقوم عولس بتضحية تسمح باستدعاء الأموات فيرى شعباً بارعاً من الأشباح يحكي له قصة اليونانيين الأسطورية. ثم يعود إلى البحر محاذياً شواطئ جنيات البحر وصخور شارييد وسكيلا الخطرة: «Sharybde et Skylla» ويصل إلى جزيرة هيليوس ناجياً من الفرق. ويبلغ الجانب الأقصى المعروف للذب الأصغر، جزيرة «أوجيجي Ogygie». تلك كانت آخر مرحلة قبل أن يعود إلى مملكته في «إيتاكا Ithaque» التي يصلها سباحة وحده عارياً كيوم ولادته. ومن هنا يبدأ ما أسماه «ميرو M.E.Mireaux» بحق أسطورة ميراثية في تلك الأوقات حيث لم تكن الجلالة الملكية دائمة طويلة

العمر وحيث قتل الملك بالقوة أو العنف كان عنواناً للتاج، وهو طقس بينا تواتره في موضوع سليمان. ولقد تعرض عولس لذلك آخر الأمر إذ قتل على يد ابنه تيليغون الذي تزوج فيما بعد أرملته بينيلوب⁽¹⁾.

وبأساطير الأسكندر وكليوباترا السادسة، نبض الفعل الذي يبدأ بغزو السلطة الوقتية ينحرف عكسياً في كلتا الحالتين. فالإسكندر يتحول إلى نبي وكليوباترا تفرق في الانتحار.

الإسكندر يخلف في العشرين من عمره أباً مقتولاً. ويبلغه الثالثة والثلاثين كان قد اكتسح ملكاً يبدأ بالغرب الأقصى ويصل إلى نهاية الشرق. وإذا كان في بداية ملكه قد قطع بخشونة عسكرية العقدة «الغوردية» الشهيرة التي ذكرنا حادتها، فإنه تحول بعد ذلك بالتوالي إلى أمير مسالم. مات في بابل وسط أبهة شرقية تماماً كعاهل إيراني بعد أن استقبل سفراء العالم المعروف كلهم. ثم ترك في ذاكرة العرب تحت اسم «إسكندر» ذكرى شخصية رفيعة الإنسانية أيّة ذات حمية وكرم. وفي القرآن يظهره محمد مسوقاً بروح إلهية سرية وبمجهة ذات قرنين على غرار موسى للإيحاء الرباني. و«الفردوسي» و«النظامي» شاعران إيرانيان كبيران حولاه إلى مؤمن ونبي لأنه استبق بفتوحاته ما سيكون عليه ملك الإسلام من «إيليريا Illyrie» إلى «الهندوس Indus».

وعماجهة هذا التحول من إنسان إلى إله، تقابل كليوباترا أسلوباً عكسياً يضعف الطبيعة الربانية للملكية الفرعونية إلى أحط درجات الإنسانية. تزوجت على التوالي من أخويها بتوليميه الرابع عشر وبتوليميه الخامس عشر، وفقاً لارتكاب المحارم الطقسي الشائع في المملكة المصرية، وقررت بعد «فارسال Pharsale» غزو قيصر الروم. نجحت في الدخول إليه في الإسكندرية محتبة في سلة ثياب. وعندما عاد قيصر إلى روما كمنتصر جرّ معه إليها ملكة مصر التي كرّس لها تمثالاً في معبد فينوس.

(1) راجع E.Mireause, Les poèmes homériques et l'histoire grecque حيث يصوب المؤلف تسلسل أحداث معقولاً للأوديسة بدا متهافتاً في النص الذي وضع بإيعاز من بيزستراتس بعد نفيه الثاني.

وبعد اغتيال القيصر قررت إغواء أنطونيوس المكلف القيام بأعمال الشرق. ذهبت تقابله في سفينة شراعية وهي ممتدة تحت خيمة من قماش مذهب ومحاطة بوصيفاتها العاريات على شكل حوريات وبغلمانها في أوضاع غرامية. ذهل أنطونيوس فنسي روما وقضى معها خلال أشهر «الحياة التي لا تقلد» بأبهة تهتكية مصطفاة لم يحدث مثل لها قط منذ ذلك الحين. وبعد هزيمة أنطونيوس، خانتته بتسليم الإسكندرية إلى «أوكتاف» «أوغست» فيما بعد «Auguste». لكن هذا توارى بعد انتحار أنطونيوس فاستقدمت سلة من التين فيها أفعى سامة مخبأة فعثر عليها بعد ذلك ميتة بشبابها الملكية.

وتبعاً للأساطير الحديثة هاملت ودون جوان وفاوست، نصل إلى خط الفصل الذي يفرق المقدس عن التخريب ومناجاة الأرواح لأن هذه القصص كلها مطبوعة بشياطينية القرن السادس عشر الذي شهد ميلاد أول عرض لها.

قصة هاملت، التي هي انتقام طقسي يُمارس بقتل أب، كانت نموذجاً للتنفيذ بواسطة الفعل. لكنها تجهض تبعاً لطبيعة البطل المناقضة للمهمة التي يجب أن يضطلع بها. ابن الملك هذا، الطالب القديم في جامعة ويتنبرج، المصاب بالنورستانيا - خور الأعصاب - على درجة خارقة من الذكاء، انفعالي وساخر يحكم من الأعلى وبقدر كل فعل إنساني بشكل ساخر كما يمكن أن يفعل ذلك في وضع آخر أحد المخلصين الهندوك لمبدأ «Zen». لكنه رغم هذا، سمح لنفسه بأن يستدرج بلا مبالاة وأدب ليشارك في مأساة يتنبأ بنهايتها وتصبح أشبه بانتحار بالتفويض، انتحار يشير إليه بدءاً من أول مناجاة له. إنه بالإجمال بطل معرفة جرت الضرورة إلى تدخل مأساوي. هناك تضاد بين ندائه الباطني ومصيره الأمر الذي أدى إلى إجهاض المصير.

وإذا جمعنا موضوعين متممين وثلاث شخصيات تاريخية، تقود أسطورة دون جوان بطلها من الفجور إلى القداسة. الموضوع الأول الذي أخرجه تيرسو دو مولينا Tirso de Molina هو وضع «شيطان» مضلل دعا ميتاً إلى العشاء. كان الفاجر «دون جوان تونوريو» قد قتل في مبارزة «دون جونزالو دو أولوا» الفارس الأمر في

«كالاترافا Calatrava» الذي غوى ابنته. وبذهابه إلى كنيسة دير الفرنسيسكان الذي دفن فيه القتيل ليحتقر ضحيته، سُحق بتمثال الأمر. وفي الواقع كان القساوسة الراغبون في الانتقام لموت المحسن إليهم هم الذين قتلوا دون جوان ورووا بعد ذلك أنه نقل إلى الجحيم بفعل التمثال الذي تحرك بأعجوبة. والموضوع الثاني للأسطورة معروف جداً، هو الشيطان الذي أصبح ناسكاً، الغاوي المضلل الذي تاب واقتنع وفقاً لمغامرة أخرى وقعت بالفعل في أوقات أخرى من جانب القسّ «دو رانسيه» أو «شارل دو فوكو» والتي أخرجها «ميلوز Milosz» شعراً.

هذه الشخصية الفاتنة الغاوية ذات الأوضاع العديدة وجدت بالفعل ولكن في حلقات مجزأة. فبطل «تيرسو Tirso» استعار اسمه ولقبه من اثنين من النبلاء المعاصرين للشاعر، الأول هو كريستوبال دو تيندريرو الذي غوى وخطف واحدة من بنات لوب دوفيجا Lope de Vaga والثاني دون جوان دوتاسيس معلم الفروسية لفيليب الرابع الأسباني والعاشق المعروف للملكة الذي صار في حينه «أكثر الفرسان كمالاً لم يُشهد مثيله من قبل» كما وصفته إحدى المعجبات.

وعن الفاسق الذي أصبح مؤمناً، يجب أن نعرف فيه «ميجيل مانارا Miguel Manara» الأمير الأندلسي الكبير الذي رَوّع «إشبيلية Seville» بفضائحه. وبعودته من تهتكه، خيل إليه أنه رأى جثته نفسها تمر في زقاق مظلم وهي محمولة لتدفن. كان ذلك نوعاً من الهلوسة على طريقة «موسيه Musset». وعلى الفور عاد إلى ذاته وتاب وترهب في دير «مستشفى الإحسان» الذي كانت مهمة الإخوان فيه بحالسة المحكومين بالإعدام في الليلة الأخيرة واصطحبهم إلى تنفيذ الحكم؛ بل وطلب أن يدفن تحت عتبة المقبرة لكي تبقى جثته دائماً مداسة بإقدام الداخلين. ولعله كان يريد أيضاً أن تُنقش على قبره هذه العبارة: «هنا مضجع بقايا أسوأ إنسان في العالم». وهذا التواضع الموغل في الكبرياء حال بينه وبين طريق القداسة فلم تتابع دعوى التقديس التي كان موضعاً لها. مع ذلك، استطاع محقق الغرام المطلق هذا أن يكتشف السبيل المساري إلى الإحسان.

وأسطورة فاوست تبقينا في جو الارتقاء الروحي هذا. بدأت بذكر حياة حافلة لشخصيتين غلّك معطيات دقيقة بقدر ما هي غامضة عنهما، شخصيتين سحرتا أكبر العقول المفكرة من «مارلو Marlowe» حتى «فاليري Valéry».

جمع فاوست، باعتباره بطلاً أسطورياً، صفات كثيرة مشتركة من مشاهير سبقوه. وهو على غرار هاملت، طالب في الجامعات الألمانية يعاني مثله نورستانيا عالمة وكهية. وهو كدون جوان أناني ومتكبر ولكنه تواق إلى أرقى الحقائق، وكأوليس، عاشق استعادي «هليلين دوسيارت Hélène de Sparte» و«كأورفيه» سينجح في الهبوط إلى الجحيم.

ولما كان قد تابع دراسة «العلم السامي» في كراكوفيا «Cracovie» فقد بات يعرف استدعاء الشياطين كما كان مؤلف دراسة في «السحر الأسود» يتكلم فيها عن علاقاته مع واحد من الأمراء السفليين الجهنميين السبعة وهو «ميفيستوفيليس Méphistophélès» الذي يجمع اسمه اسمي «هيرميس تريسميجيست Hermès Trismégiste» وملك زحل.

يروى أحد معاصريه، الراهب البندكتي الشهير «تريتيم Trithème» أنه التقاه في بلدة (Hessois هيسوا). كان يقدم نفسه على أنه الأستاذ جورج فاوست الصغير أمير مُناجي الأرواح، منجم وساحر وقارئ كف وعالم بالتنبؤ بواسطة الماء. وبعد أن اتخذ اسم جان فاوست (إذا اعتبرنا أنه الشخص نفسه) تابع الدراسات في جامعات هايدلبرج وايرفُرت وبعد أن طاف في ألمانيا بكاملها انتهى إلى الموت في قرية «بريغو Brigsau» بطريقة سرية ومأساوية.

لكن ما يجعل منه بطلاً من طراز يحتذى في البحث المتواصل عن الطاقة والعلم هو دوره كمخترع لآلة الطباعة وشريك موح لجوتنبرج الذي دخل معه في دعوى قضائية فاز بالحكم فيها. وخرافته هذه تعود إلى الرهبان المهددين بالدمار في صناعتهم كنساحين بسبب اختراع يصفونه بالشيطاني. وكان فاوست سيطلع كتابه الأول في فرانكفورت ويستغني عن مطبعته الأولى في «مايانس Mayance» حيث تعاون مع

جوتنبرج. وكان سيقدم للويس الحادي عشر كتاباً مقدساً من صنعه ويترك لتلميذه «كريستوف فاغنر Wagner» بيتين كان يملكهما في جوتنبرج.

كانت هذه الأسطورة، التي يسعى بطلها كآدم الفردوس إلى معرفة الخير والشر كما يؤكد لنا رينيه جينون Guénon الينبوع الذي أفاد في تثبيت طقس المسارة لأول الرفاق الطباعين.

وبإعادة تكوين النطاق التاريخي لبعض الأساطير الشهيرة ما أردنا إلا أن نوضح ظروف ميلادها دون أن نستطيع رمزية مغامراتها أن تخسر شيئاً من عموميتها الدائمة واللازمية.

فكر حرفي

ينهج العلم وفق أسلوب
قياسي يقوم على نقل
العلاقات التي تسود
العمل الإنساني إلى الطبيعة

س. ويل S. Weil

نحن نعرف بالتجربة أن أفكارنا ومشاعرنا لا يمكن أن تُنقل مباشرة وحدثياً إلا في ظروف استثنائية. نحن مرغمون بشكل عام على استعارة وسائل تعبير حللناها بشكل واسع في هذا العمل. وإذا عملنا على تحويل هذه العوامل الرمزية إلى عامل مشترك فإنها تذوب في تنسيق من الحركات. ويمكن لهذه العوامل وهذه الحركات أن تبدوا متناقضة.

ومن الشائع في الواقع أن نسمع تعارض الأشخاص الذين يعملون في تنفيذ أعمال يدوية، ويضمنون المادة الحية أو الساكنة فيجودونها أو يحولونها مع الأشخاص الذين يجعلون من الكلمة عملاً لهم لتوجيه الآخرين والذين يعيشون بالكلمات والرموز. وتهدف دراستنا إلى إثبات أن هذا الانقسام مفتعل. فكل فكرة تتوضح حرفياً بمثل اليد. إنها وحدها فاعلة أمام سلبية المادة. والنحاتون الذين قطعوا حجارة الكاتدرائيات ما كانوا «يفكرون» بشكل أقل عمقاً من المناطق

والمدرسين. كانت الطرق مختلفة في تنفيذ العمل الواحد لأن كل تعبير سطحي حتى لو زعم أنه يقوم الجوهر. والميتافيزيقا الأكثر إعداداً تتحول إلى هندسة مضمرة تجسد الفكرة أو بالأحرى تنطبق على فكرة خيرية منذ نشوئها.

مع ذلك، يجب ألا نخلط الوسائل بنتائجها. عندما حول ديكارت العالم في زمنه في مسعى مشابه إلى تنظيم حركات في المكان وزعم تمامي كل ظاهرة بما لم يكن إلا رمزها، ذلك ضلال يسمونه في الدين شركاً، لم تكن العبارة الجبرية للحقيقة التي يفترضها أكثر من تأشير جديد أكثر ملاءمة، تأشير يماثل في حفاوته هذه الفنادق التي لا يجد فيها الإنسان إلا ما يحمل، يماثل في ضعف كشفه هذه الصور الآلية التي يستطيع كل إنسان أن يعرف ماله منها.

وبين الشيء والفكرة يقيم الرمز دليلاً خيالياً كما يفعل صانع ثياب المسارح الذي يكسو أفكارنا الأكثر جدة بثياب رثة مستعملة من أجيال مہرجة ومشوهة وفقاً لضرورات الشخصيات التي جُسدت فيها. والحقيقة التي تختفي وراء لباس التنكر هذا لا يمكن التعبير عنها. وبين التسميات التجريبية التي ليس لها غير الكلمات أي اللباس الظاهري للأشياء، والواقعية الأفلاطونية التي تقوم على أساس كثافة الجواهر المستقرة، يلقي الرمز جسراً يحبي كل مظهر خارجي كحركة الممثل الذي يحول الكلمات التي ينطق بها إلى مشاعر معاناة خلال مراحل مثيرة في الحياة.

وهذا التحول يظهر على كل الخطط. يقول لنا «إيدنجتون Eddington» إن ما نسميه عملاً هو تفسير لملاحظة... فالفيزياء لا تدرس الصفات البيانية للمادة بل نتائج آلات ليست لها صلات بهذه الصفات أكثر من صلة رقم هاتف بالشخص المشترك. وهذا القول ينطبق على الرياضيات كما أوضح «هيلبرت Hilbert» ما دامت الطبيعة الخاصة للأشياء المعنية لا تؤخذ بالحسبان. إن علاقاتها وحدها هي التي تدخل، أي ما تحفظه بدقة هندسة اللاكمية «الطوبولوجيا».

نحن نشوه الظاهرة باطلاعنا عليها ونشوهها كذلك عندما نود التعبير عنها. ولا يمكننا أن نكون موضوعيين إلا إذا أنكرنا ذاتنا ولا نستبقي من الشيء موضع التفحص

إلا ما نقيسه بأنفسنا بوحدات الملاحظ إذا جاز هذا التحول. فهناك وحدات بقدر ما هناك مشاعر. وكل تعبير شخصي لا يلغي التعابير الممكنة الأخرى.

وبتحويل كل شيء إلى حركات نستبعد من الدنيا كما يقول ديكرت ما يكون قيمة الشيء بالنسبة إلينا الأمر الذي يسمح لنا بتذوقه بألوانه وأريجيه وأصواته ولذته فأكهته. وكل خصب الدنيا المحسوس الذي لولاه لما كان للوجود كينونة ما دمنا نعرف منذ اينشتاين Einstein أنه لا وجود له إلا بما هو موجود فيه.

ولكن، إذا كان الرمز كصانع المعجزات يجي وقتاً وشعوراً محوئين بفضل صور مستحضرة من قبل شاهد غائب أو محتجب منذ زمن طويل، فإن صور الكلمات هذه أو الأشكال ليست مضمومة أبداً في كمالها كما كانت في الفكر مع فاعلها أو كما عشت به وعلى الأخص إذا كانت هناك قرون تفصلنا عنه. كل إنسان سجين وقته والرياضيات نفسها تاريخية. والإنسان غارق تماماً في محيط التاريخ.

فكره محدود بلغته الأم. يعيش ويفكر في عالم مسور يتحرى استثماره فيسمح له بأن يسمي ما يفعل. تجسيد دائم التجدد يعيد إلى الحياة تعبيراً مقبولاً بشكل عام ليصبح مفهوماً من قبل الذي يستقبله. وبين المفهوم المنطقي الذي يقول لنا إن كل إنسان مائت وبين موت أمنا المفاجيء صدمة اعلان مؤثر يحولنا سحرياً وهو الأمر الذي عبر عنه «كير كيجارد Kierkegaard»⁽¹⁾ بشكل رائع بقوله: «لا أفهم الحقيقة إلا عندما تصبح حياة في ذاتي».

والحدسية الغامضة للفكرة الأم لا يمكن حلها أبداً بمجرد منطق. ستحوي دائماً شيئاً تقليدياً وسالفاً ومتمثلاً. يقول «جونست Gonseth»: «في كل بناء مجرد فضالة حدسية تكون قيمته ومعناه يستحيل حذفها». والجانب القابل للتعبير والظاهر كالجليل الجليدي، إشارة تحذير للحقيقة لاقياسية وغير مرئية.

(1) فيلسوف وعالم لاهوت دانمركي 1813-1855 كان يدافع عن المسيحية ضد الذين يعرضونها بصور رمزية ويقاوم أفكار هيجل وله كتابان: (أو... أو) و(صحيفة المضلل).

والرموز نفسها لها حدودها. تكون هذه الصور الفكرية قبل تحديدها، دليلنا الباطني، المادة نفسها لحياتنا. وهذه الإيماءات المؤثرة، هذه الخُيالة الدائمة، ومسرح الأشباح هذا الذي يحیی إدراكنا بطريقة سرية، لا يمكن أن يولد في الوجود إلا إذا تلقينا مسارة نظام من الإشارات قادرة على أن تكون مفهومة، وكنا، على غرار «أورفيه Orphée» قادرين على تحرير غنائنا. إن هذه التسوية في الإشارات وهذه الألفبائية للرموز والطقوس، هي التي تعرّف حضارتنا.

«300» فعل بالفرنسية مصنفة وفقاً لعضو
الحواس المختص باتجاه الفعل ومعناه الرمزي

ACTIONS

Sens tactile et musculaire

1		5
Actions intransitives	écrire voiler apposer essuyer colorer appliquer marquer raser parsemer rayer frotter empreindre tracer effacer	Actions pour augmentatives (for)
agir travailler bouger voyager voler nager courir		aider guérir amender polir affiner endurcir prodiguer stimuler épurer vivifier pourvoir exciter honorer instruire célébrer nourrir satisfaire justifier recommander favoriser garantir approuver soulager consolider gonfler augmenter
2	4	
Actions transitives	Actions avec (with)	
engendrer créer faire reproduire former placer forger	unir grouper concerter tresser entremêler concilier guider joindre participer confondre cumuler accorder assembler	
3		
Actions en surface (on)		
toucher effleurer caresser couvrir nuancer enduire étaier		

<p>6 <i>Actions internes</i> (in)</p> <p>agencer changer réformer modifier imprégner saturer</p>	<p>12 <i>Actions verticales</i> (up)</p> <p>grimper suspendre accrocher</p>	<p>abattre abaisser mépriser asservir condamner accabler</p>
<p>7 <i>Actions à partir de</i> (from)</p> <p>provenir émaner exhaler enfanter exprimer</p>	<p>13 <i>Actions horizontales</i> (along)</p> <p>ramper trainer allonger côtoyer accoster</p>	<p>19 <i>Actions ded</i> (into)</p> <p>enfermer contenir celer cacher insérer enterrer engloutir garnir inclure</p>
<p>8 <i>Actions vers</i> (to)</p> <p>aimer désirer viser tendre transmettre offrir</p>	<p>14 <i>Actions entre</i> (between)</p> <p>pénétrer intercaler introduire trier substituer correspondre balancer</p>	<p>20 <i>Actions d'a</i> (stop)</p> <p>arrêter fermer borner contenir interdire</p>
<p>9 <i>Actions vers le haut</i> (up)</p> <p>lever ériger enchérir exalter</p>	<p>15 <i>Actions autour</i> (about)</p> <p>concerner envelopper embrasser assiéger nouer</p>	<p>21 <i>Actions à tr</i> (through)</p> <p>désunir séparer diviser ouvrir traverser moudre rompre déchirer</p>
<p>10 <i>Actions au-dessus</i> (upon)</p> <p>dominer réussir régner diriger abriter</p>	<p>16 <i>Actions après</i> <i>et derrière</i> (after)</p> <p>suivre imiter</p>	<p>22 <i>Actions coi</i> (against)</p> <p>gêner envier offenser tromper affronter haïr railler duper contester</p>
<p>11 <i>Actions devant</i> <i>et avant</i> (before)</p> <p>commencer précéder prévenir prédire</p>	<p>17 <i>Actions dessous</i> (under)</p> <p>révéler obéir servir respecter</p>	
	<p>18 <i>Actions</i> <i>de haut en bas</i> (down)</p> <p>descendre humilier</p>	

blâmer
combattre
vexer
insulter
salir
menacer
diffamer
envahir
persécuter
frapper

23

*Actions en retour
(back)*

réagir
opposer
protester
résister
renier

24

*Actions diminutives
(less)*

user
avilir
déposséder
léser
corrompre
désespérer
affaiblir
compromettre
restreindre
profaner
déranger
gâter
dessécher
refroidir

25

*Actions hors de
(out)*

sortir
abandonner
délivrer
essaimer
quitter
dispenser
émanciper
perdre
épargner
distraindre
soustraire
aliéner
nier
omettre
laisser
rejeter
désavouer
éloigner

26

*Actions d'attirer
(to)*

appeler
convaincre
obtenir
attirer
prendre
accaparer
accueillir
enlever
demander
utiliser
prélever
choisir

saisir
consommer

27

*Actions d'ôter
(off)*

ôter
supprimer
prohiber
sacrifier
détruire
abolir
annuler
épuiser
exterminer

28

Actions sonores

murmurer
parler
proclamer
rythmer
dire
chanter
prêcher
énoncer
sonner
crier
narrer
lire
nommer

29

Actions lumineuses

luire
briller
brûler
embraser

PASSIONS

30

Sens de l'ouïe

ouïr
écouter

Sens de la vue

voir
regarder

Sens du tact

éprouver
sentir

Sens de l'odorat

humor
sentir

Sens du goût

goûter
savourer

ÉTATS

Sens interne

31 <i>Existence et habitude</i> être respirer vivre reposer résider	33 <i>Etats augmentant</i> devenir surgir naître croître	reconnaître compter 35 <i>Etats inférieurs</i> subir succomber douter périr ignorer
32 <i>Etats supérieurs</i> exceller culminer avoir vouloir	34 <i>Etats intellectuels</i> penser raisonner juger imaginer deviner comprendre observer rêver	36 <i>Etats diminuant</i> déchoir faillir dégénérer vieillir mourir

Note. — Ces 300 verbes ont été choisis, proportionnellement au nombre de chaque groupe, parmi les 8 000 verbes réunis dans le Nouveau Bescherelle, *l'Art de conjuguer* (Hatier, 1966).

ملحق - 2-

قاموس صغير بمصطلحات الرمزية الصعبة

- اتفاق (تفاهم) — علاقة تلاؤم بين شخصين أو معنيين مجردين (accord).
- صلة (مصاهرة) — علاقة تأملية أو ارتباطية بين شخصين أو مادتين أو معنيين مجردين (affinité).
- حساب (نظام العدّ) — طريقة تستعمل الإشارات والقواعد والنماذج العملية لتسهيل حل صورة عينية من المسائل (Algorithme).
- بجاز (استعارة) — شكل إنشائي يستعمل مجازاً مطولاً ليعرب عن معنى مستتر لا نود اعلانه مباشرة أو لأن اعلانه صعب أو حتى مستحيل قوله (Allégorie).
- تلميح — شكل إنشائي يقوم على أساس اعلان شيء لاستدعاء آخر مرتبط به تقليدياً (allusion).
- تساوي الحدين — صفة تفترض في الشيء أو المعنى المصور ازدواجية في المعنى أو في النوعية متعارضة أو متكاملة (ambivalence).
- تمائل (تشابه) — علاقة مطابقة بين شيئين أو معنيين. كان «كورنو»⁽¹⁾ يعرف التماثل كتصرف من العقل يعلو من مراقبة بعض العلاقات حتى سبب هذه العلاقات (Analogie).
- استعارة مجردة — طريقة إنشائية تقوم على أساس تعريف الشخص باسم عام أو بتورية تجمع السمات. وهي تحدد كذلك العملية العكسية (antonomase).

(1) انطوان اوجست كورنو، اقتصادي ورياضي وفيلسوف فرنسي 1801-1877، أعماله تقوم على قاعدة ربط الاقتصاد بالرياضيات.

خرافة حكيمية	— طريقة إنشائية تعرض في قصة قصيرة درساً أخلاقياً أو مثلاً روحياً (apologue).
التمثل	— سياق يتحول خلاله شيء إلى شيء آخر أو يمتصه (assimilation).
ارتباط، تعلق	— اندفاع فعال جوهري حيواني بقدر ما هو إنساني يميل علماء السلالات والمتخصصون بالعادات بين الشعوب إلى إحلاله محل نظرية «ليبيدو» الفرويدية الانطوائية بلا مسوغ والشمولية. إنها تجمعنا في الأساس بالأشخاص والأشياء، على غرار تأثيل التربة، التي بفضل حبها وحمايتها أو مجرد وجودها تسمح لنا بالعيش (attachement).
صفة (خاصية)	— رمز مميز يصاحب وجه إنسان حقيقي أو استعاري يؤكد لنا هويته. ويمكن أن يوحي لنا الفكرة في غيابه على غرار الصليب بالنسبة إلى المسيح والمظلة الكبيرة لبوذا (attribut).
ختم - صبغة	— علامة شخصية مخصصة لتأكيد صحة ما هو مكتوب أو صحة شيء ما وأحياناً مصدره (cachet).
مقارنة	— أسلوب إنشائي مخصص لايضاح ما يجري الكلام عليه بعكسه إلى موقع مماثل ولكن أكثر بساطة أو معروفاً بشكل أفضل من قبل الذي يوجه الكلام إليه (comparaison).
مطابقة	— علاقة شيئين أو موضوعين أو تزامنها (concordance).
تطابقية	— تعريف صفة تنطبق على شيئين أو موضوعين (conformité).
توافق	— طبيعة كل ماله رباط ثنائي (convenance).

ارتباط متبادل	- علاقة صلة بين عاملين مجتمعين في موضع ذي نتيجة (corrélation).
اتصال	- صلة ربط أو تناظر بين أجلين لمجموع واحد أو لعدد من المجاميع (correspondance).
رمز - شعار	- مبدأ أساسي يصلح لتعريف شيء أو أسرة أو مدينة أو أي حقيقة أخرى ملموسة (devise).
رسم	- تصوير لوجه إنسان أو أسطورة في لوحة أو في مثال (effigie).
إيجاز - إضمار	- طريقة إنشائية تهدف إلى اختصار خطاب اعتماداً على ذكاء أو ذاكرة السامع لتلافي ما لم يذكر تفصيلاً (effigie).
رمز - شعار	- وصف مجسد يمثل تقليداً شخصاً أو سلكة أو مهنة أو حزباً... (emblème).
بصمة	- إشارة تتخلف عن جسم أو عن جزء منه على سطح موجودة في الجسم من قبل (empreinte).
توازن	- تساوي القيمة بين شيئين، شكلين أو كنهين أيأ كانا (Équilibre).
تعبير	- إشارة من إنسان حي أو طريقة تقنية مخصصة لنقل شعور ما إلى المتفرج أو فكرة محددة (expression).
تناسق	- إيقاع جيد من ظاهرة حساسة يمكن ملاحظتها (eurythmie).
أسطورة	- حكاية خيالية تبرز خرافة أو درساً أخلاقياً (fable).
وجه - هيئة	- تمثيل مرئي لشيء أو لشخص بأحد الفنون التشكيلية (figure). وبالتعميم، تمثيل لواقعة أو فكرة بطريقة كلامية تسمى trope «استعارة».

شكل	- محيط ملموس للظاهرة المادية لشيء أو لشخص ما (forme).
تناغم	- ترتيب لطيف لأشكال أو أصوات أو أفكار (harmonie).
هيراغليفية	- أشكال الكتابات المصرية القديمة المركبة من رسوم وإشارات سواء مصورة أو مرمزة أو صوتية (hiéroglyphe).
أيقونة	- رسم ديني خاص بالكنيسة الأرثوذكسية الشرقية (icône).
فكرة	- كلمة أصلها باليونانية eidos التي تعني الشكل، الظاهر، الصورة، وبالتجاوز ماهية يينة. وهذا المعنى الأخير بقي وحده مقبولا بالفرنسية idée مما يخفي معناه الأول: صورة فكرية (idée).
هوية	- صفة أشياء أو أشخاص متشابهة تماماً دون أن يمكن الخلط بينها. يقال بصورة خاصة عما هو متوحد وإن كان يُرى بأشكال واضحة تحت مظاهر مختلفة (identité).
معبود - صنم	- صورة أو تمثال يمثل إلهاً يفترض أنه معبود في ظاهره المحسوس وهذا ما يشكل الخطأ الذي يطلق عليه اسم عبادة الأوثان (idole).
صورة	- تمثيل كائن أو شيء بالفنون التشكيلية أو الخطية. وبالتجاوز، هو وصف للكائنات نفسها أو الأشياء بقصة أو تمثيل فكري مشتق من مصدر حساس (image).
تقليد	- إعادة إصدار حركات وأفعال وصور ذات ظواهر محسوسة للطبيعة أو للمؤلفات الصادرة عن الإنسان (imitation).
دليل	- شكل أو أثر يبين احتمال وجود حالي لشخص أو لشيء أو لحدث سابق (indice).

- دلالة - علامة - أثر طبيعي أو اصطلاحى مطبق على شيء لاستخلاص طبيعته أو مصدره (marque).
- وساطة - عملية فكرية أو إنشائية تصلح كتدخل بين فكرتين بفضل نمط مشترك يفصح عنه (médiation).
- استعارة - مجاز - صورة إنشائية تثري كلمة بتحويل المعنى بحيث تصبح صالحة للتطبيق على شيئين متساويين في المظهر أما مادياً كورقة شجرة أو ورقة عادية أو في الفكر كتقييم مغزى بالتفكير. وكان فيكو Vico يسمى المجاز «أسطورة فاعلة». (métaphore).
- كنائية - تكنية - صورة من الإنشاء تقوم على التعبير عن شيء بالاستعانة بشيء آخر متحد به بعلاقة دائمة كالدافع وأثره، المشتمل والمشمول، الإشارة والشيء الذي تدل عليه (métonymie).
- تكييفية - رمزية بالنسبة إلى كائن هي أن يقلد كائناً آخر في صفاته العامة أو الخاصة. وبالتجاوز تقال عن كل أشكال التقليد المحسوسة أو المعنوية (mimétisme).
- طراز - نموذج - شخص أو شيء يصلح لإعطاء مثل ليعمل شيء على الطريقة نفسها (modèle).
- أسطورة - عرض مبدأ ديني أو اعتقاد أو تصور على شكل قصة خرافية تقليدية أو خيالية (mythe).
- ظل - ظلال - مكان مظلم يرسم خيال شيء اعترض النور الذي يضيئه. ويمكن اعتباره كالمظهر العابر للحقيقة (ombre).
- مثل - قصة نموذجية مستخلصة من بعض الكتب المقدسة التي تعرض بطريقة رمزية درساً أخلاقياً أو عقيدة (porabole).
- تكافؤ - تعادل - حالة متساوية القيمة أو المحاكاة أو التوازن (parité).

إسهام	— طريقة تفكير تفترض سمة شعورية بين شخصين أو كيانين أو كائنين مختلفين في الظاهر، تجمع مذهبية واحدة (participation).
فأل - تنبؤ	— إشارة تسمح باعلان حدث مقبل (présage).
علاقة	— صلة قائمة بين حدثين أو تصورين أو شخصين بفضل وحدة نظام ما: المساواة، القياس، التشابه، التوافق، السببية، التتابعية أو القصدية (rapport).
انعكاس	— صورة مقلوبة في مرآة أو بالامتداد وهي تعطي مظهراً ملطفاً لنموذج يمكن أن يكون إنساناً أو شعوراً أو تصوراً (reflet).
ارتباط، علاقة	— صلة منطقية بين كنهين أو تصورين كل منهما مستقل بطبيعته بشكل عام (relation).
تمثيل	— سياق يمكن بواسطته جعل واقع مدركاً بالعين أو بالحواس الأخرى مثل واقعة أو فكرة أو شخص بفضل صورة أو قصة أو مشهد (représentation).
تشبيه	— علاقة بين شخصين أو شيئين تظهر العوامل المتعددة لتكون ممتزجة في مجموعها أو في جانب منها (ressemblance).
خاتم: ختم	— بصمة أو خاتم يثبت على شيء لتحديد مصدره أو ضمان سرية (sceau).
صدر كلمة	— حرف أولي أو تابع لأحرف أولية يستعمل كاسم موجز (sigle).

- إشارة — لفظة نوعية أساسها توسط. تحدد كل ظاهرة من أي طبيعة كانت، مفهوم أو غير مفهوم، طبيعية أو اصطلاحية، يمكنها أن تُترجم كميّن لوجود عامل آخر غالباً ما يكون غير معلن أو غير ممكن إعلانه في حالة ما. لكن عدم الوجود المؤقت هذا لا يفرض إشارات دون معنى الأمر الذي يصبح معها متناقضاً (signe).
- محاكاة — علاقة تجمع بين شيئين متشابهين حقاً (similitude).
- صورة (خيالية) — صورة أو ظاهرة حساسة يمكن أن تبدو حقيقية (simulacre).
- رمز — من الناحية الاشتقاقية وفي الاصل، هو إشارة تعارف بين نصفين متممين لشيء واحد. وهو يصف توسعاً سمة أو معنى مجرداً أو شيئاً أو شخصاً أو قصة تمثل النصف الآخر بمقتضى تشابه جوهري أو اتفاق عفوي (symbole).
- تمائل، تناظر — نسبة صحيحة تبرز مختلف أجزاء مظهر محسوس (symétrie).
- تزامن — طبيعة عوامل دورية تحدث في وقت واحد (synchronisme).
- مجاز مرسل — صورة إنشائية تطيل أو تقصر معنى كلمة بشكل تعبر فيه عن شيء على درجة ما بكلمة تنطبق على أسلوب تكبير آخر ولكن من المجموعة نفسها. مثلاً: تعريف الجزء بالكل، اسم عام باسم خاص أو العكس (synecdoque).
- أثر — علامة تركت بعد تنفيذ عمل ما (trace).

- استعارة — صورة إنشائية من «علم البلاغة القديم» بموجبها تكون كلمة أو تعبير محوّلًا عن معناه الأول». إن عالم الاستعارات يحوي أكثر من ثمانين شكلًا للإنشاء كانت تدرس من قبل علماء البلاغة الأقدمين. وهي لا تمثل في المصطلح الحالي سوى المجاز والتلويح والمجاز المرسل والاستعارة المجردة (trope).
- بقية، أثر — أثر يبقى من فعل ماضٍ أو شيء مدمر يدل على حقيقة وجوده (vestige).

بييليو غرافيا

- ALLEAU (R.), *De la nature des symboles*, 1954.
 BACHELARD (G.), *L'air et les songes*, 1943. — *La poétique de l'espace*, 1957.
 BALLY (Ch.), *La langage et la vie*, 1952.
 BENOIST (L.), *La cuisine des anges*, 1933. — *Art du monde*, 1941.
 BIANQUIS (G.), *Faust à travers quatre siècles*, 1955.
 BONNET (J.), *Les symboles traditionnels de la sagesse*, Roanne, 1971.
 BROCHER (H.), *Le mythe du héros*, 1932.
 BRUN (J.), *La main et l'esprit*, 1963.
 CASSIRER (E.), *La philosophie des formes symboliques*, 1972.
 CHAMPEAUX (G. de) et STERCKX (dom S.), *Introduction au monde de symboles*, 1966.
 CHAUCHARD (P.), *Les messages de nos sens*, 1944. — *Le langage et la pensée*, 1956.
 CHEVALIER (J.) et GHEERBRANDT (A.), *Dictionnaire des symboles*, 1969.
 DENEREAZ (A.), *L'harmonie des nombres*, Lausanne, 1931.
 DURAND (G.), *Les structures anthropomorphiques de l'imaginaire*, Grenoble, 1960. — *L'imagination symbolique*, 1964.
 ELIADE (M.), *Images et symboles*, 1952. — *Mythes, rêves et mystères*, 1957. — *Aspects du mythe*, 1963.
 FALIGAN (H.), *Histoire de la légende de Faust*, 1887.
 FROMM (E.), *Le langage oublié*, 1953.
 GENNEP (A. van), *La formation des légendes*, 1910.
 GHYKA (M.), *Philosophie et mystique des nombres*, 1952.
 GILLES (R.), *Le symbolisme dans l'art religieux*, 1943.
 GOBLET D'ALVIELLA (Cte), *La migration des symboles*, 1891.
 GOMBRICH (E.-H.), *L'art et l'illusion*, 1971.
 GRISON (P.), *La lumière et le boisseau*, 1974.
 GUBERNATIS (A. de), *Mythologie zoologique*, 1874. — *Mythologie des plantes*, 1878.
 GUÉNON (R.), *Le symbolisme de la croix*, 1931. — *Les symboles fondamentaux de la science sacrée*, 1962.
 GUIRAUD (P.), *La sémantique*, 1955. — *L'étymologie*, 1964. — *La sémiologie*, 1971.
 HANI (J.), *Le symbolisme du temple chrétien*, 1962.
 HAUTECEUR (L.), *Mystique et architecture*, 1954.
 HUET (G.), *Les contes populaires*, 1925.
 JOUSSE (M.), *Anthropologie du geste*, 1969.
 LEROI-GOURHAN (A.), *Le geste et la parole*, 1964-1965.
 LÉVI-STRAUSS (Cl.), *La pensée sauvage*, 1962.
 MARGOULIÈS (P.), *La langue et l'écriture chinoises*, 1943.
 MOUSSAT (E.), *Ce que parler veut dire*, 1953-1960.
 MUCCHIELLI (R.), *Le jeu du monde et le test du village imaginaire*, 1960.
 NODIER (Ch.), *Dictionnaire raisonné des onomatopées françaises*, 1808.
 PEI (M.), *Histoire du langage*, 1954.
 PIAGET (J.), *La formation du symbole chez l'enfant*, Neuchâtel, 1959.
 POISSON (A.), *Théories et symboles des alchimistes*, 1891.
 PORTAL (F.), *Des couleurs symboliques*, 1837.
 PULVER (M.), *Le symbolisme de l'écriture*, 1953.
 ROUGEMONT (D. de), *Les mythes de l'amour*, 1961.
 RUYER (R.), *L'animal, l'homme et la fonction symbolique*, 1964.
 USHA CHATTERJI, *La danse hindoue*, 1951.
 WAILLY (Ph.), *Les animaux nous parlent*, 1973.

فهرست

5 مقدمة
9 الفصل الأول. - الإشارات ونظرية الحركة
9 أولاً - من الحسن إلى المعرفة
12 ثانياً - من الحركة إلى الإشارة
16 ثالثاً - الأنا كمصدر
18 رابعاً - الصبيحة كغناء
21 خامساً - من الاسم الخاص إلى الكلمة العامة
23 سادساً - تطورات الحركة
26 سابعاً - أولوية الإيقاع
28 ثامناً - أشخاص الفعل الثلاثة
30 تاسعاً - ست وثلاثون حالة وحركة
36 عاشراً - التماثل اللاكمي
39 الفصل الثاني. - عالم الرموز
39 أولاً - ازدواجية الرموز

43 ثانياً - عالم السماء
47 ثالثاً - مركز العالم ومحوره
54 رابعاً - الوسطاء البدائية: النار - الهواء - الماء
64 خامساً - الوسطاء الكونية: الكواكب السيارة، الأعداد والألوان
73 سادساً - العالم الأرضي: فن العمارة
77 سابعاً - عالم الأرض - الزراعة
80 ثامناً - عالم ما تحت الأرض - التعدين
89 الفصل الثالث. - الطقوس والأساطير
89 أولاً - الطقوس
95 ثانياً - الأساطير
105 الخاتمة. - فكر حربي
109 ملحق 1
113 ملحق 2 - قاموس صغير بمصطلحات الرمزية الصعبة
121 بيليوغرافيا

موسوعات لدى عويدات للنشر والطباعة

- 1 - تاريخ الحضارات العام / 1-7
- 2 - تاريخ أوروبا العام / 1-3
- 3 - موسوعة لالاند الفلسفية / 1-3
- 4 - موسوعة علم النفس / 1-3
- 5 - رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء / 1-5
- 6 - الموسوعة الفلسفية الشاملة / 1-2
- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية
- 7 - الموسوعة التجارية الشاملة / 1-4
- 8 - الكامل في قانون التجارة / 1-4
- 9 - موسوعة صغارنا / 1-13

- 10 - موسوعة زدني علماً / تربية وتعليم
- 11 - موسوعة زدني علماً / علم نفس
- 12 - موسوعة زدني علماً / بيانات
- 13 - موسوعة زدني علماً / علوم اجتماعية
- 14 - موسوعة بشباينا - لاروس / 11-1
- 15 - موسوعة النبات والأعشاب

LUC BENOIST

**SIGNES, SYMBOLES
ET MYTHES**

Traduction arabe
de

Fayez Kam NAKECHE

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban

إشارات، رموز وأساطير

كان إنسان الأصول ككل نشء أولي، لكي يضمن سلامته أو ببساطة أكثر لكي يضمن البقاء، مرغماً، في كل لحظة على أن يولي عناية كبيرة بالإشارات التي ينقلها إليه مجرد وجود المخلوقات أو الأشياء حوله. إنها من جهة أخرى ضرورة قائمة دائماً رغم مخادعة المدنية بإضعافها. فنحن اليوم كما كنا بالأمس ملزمون بممارسة رقابة دائمة بشعور باطني معظم الوقت على محيطنا اليومي كالطعام مثلاً والمناخ وحركة المرور واللقاءات العفوية العديدة التي لا تزال تجربتنا بعيدة جداً عن تقويم كل احتمالاتها. ومنذ البداية، كانت حياة الإنسان مرتبطة بفعل المعرفة إذا أمكن تطبيق هذا التعبير الطموح على انتباه غاية في البدائية.

اليوم كالأمس، يختلف نقل الآثار التي تغشانا من البيئة المحيطة تبعاً للجهاز المستقبل. والحواس الثلاثة الأكثر إيجابية، اللمس والذوق والشم، تلتصق، إذا جاز القول، به قريبة جداً بصورة عامة. بهذه الحواس يبدو أن تتطابق مع حسنا. مع ذلك، يصعب علينا غالباً ذاتية محدّدة. فاللمس أعمى متعدد التكافؤ وضعيف

